روايات عبير الجديدة

كاي ثورب

حبيبي ذاك البطل المجهول

WWW.REWITY.COM

مـــرمـــوريـــة

حبيبي ذاك البطل المجهول

عندما تلتقي فتاة بريئة في الحادية والعشرين من عمرها رجلاً يقارب الأربعين... هل الحب هو ما تتطلع اليه، ام اشباح الماضي التي تجد نفسها مضطرة لمواجهتها؟ احبته من النظرة الأولى وقبلت ان يتزوجها ويأخذها الى احدى جزر البحر الكاريبي. واكتشفت هناك ان الفنان جون تريكارل... رجل معذب يطارده شبح زوجته الراحلة جوانا... المرأة الساحرة التي ما زال اختفاؤها المفاجىء يكتنف الجزيرة بالأسرار... ثم هناك ابنة عمها بولا، ذات الشخصية الشرسة والجمال المماثل... والتي تؤكد لها باستمرار علاقتها السرية بجون. فلماذا اذن تزوجها هي، ولم يتزوج بولا؟

١

الغريب ..

أقبل على الوادي لسنوات خلت ، ويوم كنت شاباً لم أتجاوز العشرين من العمر ..

كنت أقف قريباً من الأسطبل في طرف المزرعة لما شاهدته مقبلاً ، فراعني فيه هذا الإشراق الغريب في وجهه وهذه القوة البادية في جسمه ، وهذا النشاط الظاهر في كل حركة من حركاته ..

وقفت مشدوهاً أنظر إليه ، وهو يتقدم في الطريق العام على ظهر جواده ، ولم أكن أعلم انه في سبيله إلينا ، أو انه يفكر في النزول عندنا ..

وكانت الشمس ترسل أشعتها الحارة على الارض فتلهب الأنفاس ، وتعصر الشفاه ، وكان لا يزال بعيداً عني ، و ن كانت كل حركة من حركاته قد راعتني .. فأخذت أتابع تقدمه لا أحوّل نظري عنه ، وهو يقترب مني رويداً رويداً ..

ومرّ به جماعة من العمال ، فأعارهم نظرة عابرة ، ولكنهم

وقفوا كافعلت ، يحدّقون فيه ، وينظرون أليه .. حتى أصبح بعيداً عنهم .. وقد أخذهم بالتأكيد ، مثل ما أخذني من غريب مظهره ، وجلال هيأته ..

وبعد قليل أصبح في شارع البلدة القائمة حول مزرعتنا ، ولكنه لم يلق بالاً لشيء ، بل تابع سيره ، حتى أصبح قريباً مني ، لا يفصله عن مزرعتنا غير مزرعة جارنا « لوك فلتشر » الواسعة الكبيرة ..

ثم شاهدته يتمهل قليلا ، وأحسب انه كان يفكر فيما إذا كان سيميل بجواده إلى مزرعة جارنا ، أم أنه سيقصدنا ، وبعد ثوان رأيته يتقدم نحونا ، فأدركت ان اختياره وقع علينا ..

فلما قاربني أخذت أحدق فيه وهو على ظهر جواده ، فإذا تأثير على من يقاربه ، مثل تأثيره عليّ وهو بعيد ، لقد كان بالتأكيد شاباً في حدود الثلاثين من العمر ، ولكنه كان بادي القوة والنشاط والهدوء ، ظاهر الحذر واليقظة ، تلمع الابتسامة على شفتيه بين كل آونة وأخرى ؛ ثم تختفي ويحل محلها ، هدوء يغمر وجهه الجميل ؛ وعينيه اللامعتين الشديدتين ..

لم تكن ملابسه مما يلبسه عامة الناس ؛ فقد كانت بالتأكيد من ملابس سكان المدن ، وكان يبدو لمن يتأملها أنها من أجود الأقمشة ، ولكنها كانت بادية العناء كصاحبها ، قد نزل بها مانزل به من غبار الطريق ، ومشقات السفر ..

ثم أخذت أحدّق في جسمه ، لقد كان رقيقاً نحيلاً إذا قيس إلى والدي القوي الجسم الضخم الجثة ، ولكن هـذا النحول

الظاهر كان يخفي وراءه ، عضلاً قوياً ، وجسماً رياضياً تأكدته من نظري إلى ساعديه ، ومن لمحة أرسلتها إلى حركات وهو على ظهر جواده يتقدم بهدوء وطمأنينة وحذر ..

وأما وجهه فقد كان شيئاً غريباً جداً ، كار ـ رهيباً إذا اختفت ابتسامته ، ماكراً إذا علت الابتسامة وجهه ، مرحاً إذا لمعت عيناه ؛ وكان إلى هـذا كله حليق الذقن والشاربين .. أبيض اليدين نظيفهما ، مما يدل على أنه ليس من العمال ولا من المزارعين ..

فلما أصبح على خطوات مني ، ألقى عليّ نظرة عابرة ، ثم تحوّل عني إلى ما حولي ، فأجال نظره يميناً وشمالاً ، وشرقاً وجنوباً ، كأنما يترقب شيئاً ، أو يحذر خطراً ..

وكان منزلنا صغيراً بالتأكيد ، ولكنه كان لطيفاً محبباً .. يتألف من غرفتين وثالثة للطعام والتدخين ، وكان المطبخ خلف البيت ، والأسطبل غير بعيد عنا .. وكان واسعاً يضم ثلاثين جواداً عند الحاجة ..

وقد بدا لي أن هذا الغريب قد اطمأن الى المكان ، والأرض التي حوله ، فقفز عن جواده بخفة النمر ، ثم نظر إلي ثانية ، فأصابتني رعشة حين تلاقى النظران ، ثم رأيته يرفع نظره عني إلى ما خلفي ، ويقول بصوت رقيق عذب :

— هل أستطيع أن آخذ حاجتي من الماء ؟ ..

وأخذت أفكر في جواب لسؤاله ، حين فطنت إلى انه لم يكن يوجه كلامه إليّ ، وإنما إلى والدي ، الذي ظهر خلفي دون أن

أفطن إلى وقع خطواته ، ثم سمعت والدي يقول :

– لك أن تأخذ من الماء ما تشاء أيها الغريب ..

وجذب الغريب جواده إلى حيث كان حوض الماء ، فملأ سطلا حتى سال الماء من أطرافه ، وترك جواده يأخذ منه حاجته ، قبل أن يبدأ بنفسه ، اخذ يغسل وجهه ورأسه ويديه ، ثم بدأ بإزالة ما علق على ملابسه من غبار الطريق .. ثم عمد الى مشط أخرجه من جيبه ، فصفف به شعره ، وهو هادئاً ساكناً ، حتى إذا انتهى من هذا كله تطلع ملياً إلى الزهور التي زرعتها أمي حول المكان ، فتنسم شذاها ، ثم قفز ثانية إلى جواده في سبيله الى الطريق العام ..

●

سحرتني حركاته ، فلم أرفع نظري عنه ، وكنت على مثل اليقين من أن أحداً من الذين مروا بنا لم يسحرني مثله ، ولا أثار اهتمامي ، كما فعل هذا الغريب .. كنت أحس أن فيه نوعاً من الزهو والفخر ، وانه يحس في نفسه هذا الزهو والفخر وأدركت انه ليس من الرجال العاديين ، وإنما هو رجل عركه الزمن بالتأكيد ، فوقف في وجه الزمن وتحداه ، وانتصر عليه .. ووددت لو أكون مثله هدوءاً وتأثيراً على الناس الآخرين ..

فلما قاربنا .. أنا وأبي ، هم بالانصراف والابتسامة بادية على وجهه وكانت ابتسامة هادئة ناعمة رقيقة ، ثم رفع صوته يقول :

– شكراً جزيلاً ..

وكان الصوت رقيقاً قوياً في آن واحد ..

وفجأة سمعت والدي يقول :

– لا تذهب بمثل هذه السرعة أيها الغريب ..

وكدت أقع إلى الأرض من هول المفاجأة ، فما كان من عادة والدي ان يدعو أحد المارة أو يطيل الحديث معه ، كان رجلاً عملياً إلى أبعد الحدود والغايات ، وكان من الصعب ان يؤثر عليه إنسان ، أو يثير أهتمامه أحد ..

وانفتل الغريب لما سمع هذه الدعوة ، وأخذ يحدق النظر في والدي متفحصاً إياه هادئاً رزيناً كعادته ، ولكن هذه النظرات الهادئة اللطيفة أثارت في نفسي رعشة لم أدر لها سبباً ، وقلت في نفسي : إذا كان هذا تأثيره علينا وهو ينظر إلينا نظرة صديق ، فكيف به إذا كان عدواً أو كان من الغاضبين ؟ ..

وعلت الابتسامة وجه الغريب ثانية ، فأدرت وجهي نحو أبي ، فإذا به يبتسم أيضاً ، ثم سمعته يعيد الدعوة ويقول :

– أردد ما قلته من أنه ليس هناك ما يدعوك الى متابعة المسير بمثل هذه السرعة ، فإن الطعام سيكون على المائدة بعد قليل ، كما أن بإمكانك أن تقضي الليل عندنا ، فتأخذ لنفسك حظاً رحباً من الراحة ..

وهز الغريب رأسه بالموافقة ، واستقر رأيه على البقاء ، وراح يقول :

– هذا لطف عظيم منك ..

وقفز عن جواده ، بمثل سرعة البرق ، فتقدم أبي نحوه ،

ساروا معاً نحو الأسطبل ..

وقدم أبي نفسه إلى الغريب في أثناء الطريق . فقال :

– إني أدعو جو ستارت ، وهذا ابني روبرت ستارت أو بوب ..

فهز الغريب رأسه وقال :

– إني أدعى شين ، وهذا يكفي في الوقت الحاضر ..

ثم نظر إليّ مليا وقال :

– إذن فأنت بوب .. لقد كنت تراقبني منذ ظهرت في أول الطريق ..

ولم يكن الغريب يحاول سؤالي ، وإنما كان يردّد أمراً واقعاً كما لحظت من لهجته ، فترددت ثم قلت :

– نعم .. لقد فعلت ذلك ..

– هذا جميل .. فإن الرجل الذي يحسن مراقبة ما حوله ، لا يؤخذ على حين غرة ..

وسرّني كلامه ، وأسرعت أساعده على ربط جواده ، فلم يعترض ولم يقل شيئاً ..

فلما عدنا إلى المنزل ، وجدت والدتي بانتظارنا ، فقدمها أبي إلى شين فأحنى رأسه وهو يصافحها ، حتى كادت تلامس شفتاه يدها ، فأحنت هي بدورها رأسها وركعت قليلا ، كما لو كانت أمام ملك من الملوك ، ولم أكن قد رأيتها قط تفعل مثل ذلك أمام أحد في حياتي ، وكنا نحبها حباً جماً ، ونحترمها احتراماً عظيماً ، ونفعل ما استطعنا ، وفوق ما نستطيع لإرضائها وإسعادها ..

وقالت أمي بعد ان انتهى التعارف :

– مساء الخير يا مستر شين ، فلو لم يستضيفك جو ، لدعوتك أنا ، لأنك لن تجد طعاماً شهياً في هذه المنطقة عند أحد غيري..

وكانت أمي بالتأكيد أبداً فخورة بالطعام الذي تقدمه ، وكان والدي يحب طعامها ، ويستسيغ الحلويات التي تصنعها ، وكان إذا انتهى من الطعام يعود الى عمله الذي لا ينتهي وهو أشد ما يكون نشاطاً وقوة ..

استولى على أمي السرور لما شاهدت شين يأكل بشهية جيدة ، ولمعت عيناها طرباً وفخراً ، فلما انتهينا من الطعام ورفعت أمي صحاف الأكل ، جلسنا نأخذ بأطراف الحديث على غير هدى ، فتارة يتكلم أبي عن الزراعة وطوراً عن الحياة في هذه المنطقة ، وشين هادىء يدخن سيغارته ، ويسأل سؤالا من آن لآخر ، ولكني كنت أشعر في قرارة نفسي ان الحديث لم يكن يهمه ، وانه إنما كان يستمع إليه لأنه لم يكن يريد ان يتحدث عن شيء غيره ..

وحاول والدي ، وأيدته أمي ، أن يعرفا شيئاً من ضيفنا عن أعماله وأفعاله وشأنه ، ولكنه كان أبداً يداور بأجوبته ، فلا ينبس لسانه عن شيء من أخباره ..

كان لطيف الحديث مرحاً ، يحسن الدعابة والنكتة ، كما بدا لي من حديثه و أسئلته ، وكان كثير المعرفة ، واسع النوادر والأخبار ، كما بدا لي من أجوبته وحواره ، ولما كان يكره الحديث عن نفسه ، فقد راح يسأل والدي عن شأنه ، وكان

هذا مما يسر والدي ويرضيه ،فمضى يقول :

– نعم .. يا مستر شين ، ان الأرض تتقلص رويداً رويداً ، وتقتسم خيراتها أقلية من الناس ، ولسوف يأتي يوم ما أظنه بالبعيد أبداً ، لا يجد فيها صاحب المواشي أرضاً حرة يستطيع أن يترك مواشيه ترعى فيها ..

وأجابه شين : لقد سمعت هذه القصة في طريقي إلى هذا المكان .. ويبدو ان كثيرين يؤيدون رأيك ..

– هذا ما أتمناه دائماً وأبداً ، وليس أمام الانسان منا، إلا ان يختار قطعة من الأرض – إذا ما أراد ان لا ترحمه الدنيا بعد ذلك – ثم يبني فيها منزلاً صغيراً ، ويشتري بالباقي من ماله بعض المواشي ، يقوم على تربيتها ورعيها في أرضه ، وقد وفقت إلى شيء من هذا ، ولا اكتمك أني لست غنياً مثل جاري فلتشر ، ولكني لم أنزل في هذا المكان إلا منذ وقت قصير ..

« نعم ان فلتشر يملك من المواشي أضعاف ما عندي ، وهو كذلك يملك من الأرض أضعاف أضعاف أرضي ، كما أن له الحق في ان ترعى مواشيه الأراضي العامة ولكنه يعارض سواه بالافادة منها ، مع ان هذه الأرض كبيرة جداً ، وهو لا يحتاج إلا لبعضها ، ولكنه يعتقد أن صغار الفلاحين لا يستحقون الحياة ، ولهذا فهو يفضل إبادتهم ، ويعمل ما استطاع لإزعاجهم وإفلاسهم ..»

– إذن فهو يسعى لإبعادكم وطردكم ..؟

– بالتأكيد .. ولو اجتمعنا واتحدنا لأخرجناه ووقفنا في وجهه ، وإذا ما أراد ان يمنعنا من الافادة من الأرض العامة

الواقعة خلف النهر ، فسنضطر للوقوف في وجهه . وقد انتزعنا حتى الآن قطعاً محترمة من هذه الأرض ، كما حجزنا عنه قسماً من النهر ، وقد سمعنا انه ضيق الصدر من عملنا هذا ، وهو يخشى ان يأتي سوانا من المزارعين فيستقر في الارض ، فلا يستطيع بعد ذلك استلاب بقية الاراضي العامة التي يطمع بها ..

شعرت بدافع يدفعني للذهاب الى غرفتي ..ففعلت .. ثم عدت بعد قليل لأسمع أمي تقول لأبي وهما وحدهما في المطبخ:

– أليس عجيباً رفضه التحدث عن نفسه ؟ ..

– إني لا أجد في هذا شيئاً عجباً ، فكثيرون من الناس يضيقون صدراً بالتحدث عن أنفسهم ..

– ولكنه غريب جداً ، ولم أشاهد رجلاً في حياتي بمثل هدوئه العجيب ..

– هذا صحيح .. وأمثاله قليل ، وحين يكون واحدهم شريراً ، يكون شراً من السم ، أما إذا كان صالحاً فاضلاً فانه يكون من نوادر الزمان .. لقد اجتمعت الى بعضهم .. وهم كما وصفت ..

وسألته أمي : وكيف وثقت به ؟ .. وهو يرفض ان يحدثنا بشيء عن نفسه ..

– لعل له غرضاً ، ومن يدري فقد يكون يحمل سراً دفيناً في قلبه .. ولكني أشعر بأنه رجل يستطاع الاعتماد عليه ..

– وأنا أخذت أحبه .. فإنه لطيف هادىء طيب الاخلاق ، ولكن

هنـــاك شيئاً تحت هذا اللطف والهدوء .. لا استطيع تفسيره ولا إدراكه ..

– لعلك تريدين ان تقولي انه رجل غريب كثير الاسرار

– انه طبعاً غريب كثير الاسرار .. بل اكثر من ذلك ، انه رجل خطر ..

– لقد أدركت انه رجل خطر منذ أول نظرة ، ولكنه ليس خطراً علينا ..

وسكت قليلاً ثم تابع حديثه قائلاً :

– ولا أظن أنك احتويت في منزلك رجلاً ، اكثر إخلاصاً منه قبل اليوم ..

نهضت في اليوم الثاني متأخراً ، فلما ذهبت الى المطبخ وجدت أبي والغريب يأكلان بعض الفطائر ، فهزني والدي وكانت هذه تحية الصباح عنده ، ورمقني الغريب بنظرة رقيقة ثم قال :

– صباح الخير يا بوب .. عجّل فخذ نصيبك من هذه الفطائر اللذيذ التي لم أذق مثلهـا في حياتي .. فيقوى جسمك ، وتنمو عضلاتك حتى تصبح أضخم من أبيك وأقوى عضلاً ..

وصاحت أمي تقول : أسمعت يا جو ما يقول .. الفطـــائر الحريرية .. ما ألطف هذا الوصف لفطائري .. اني لم اسمع بهذا الوصف في حياتي ..

فقال الغريب : انه وصف جـديد ، ولكني لا اكتمك

اني لم أتذوق مثل فطائرك هذه ، مع اني كثير التجوال ، شاهدت اكثر بلاد الدنيا ، ونعمت بأشهر مطاعم العالم .. ولكن هذه الفطائر تنعم بنكهة خاصة لا مثيل لها .. لم أذق مثلها قبل هذه الساعة ..

وسرت والدتي من هذا الوصف ، وكادت ترقص طرباً .. وشكرت الغريب ، وعادت الى المطبخ للاشراف على بقيـــة الفطائر التي كانت على النار ..

وأخذت السماء في هذه الأثناء تمطر بغزارة ، وكان الغريب قد انتهى من طعامه ، ونظف الصحن الكبير الذي كان أمامه ، حتى لقد خشيت ان تمتد أصابعه إلى صحني .. ولكني رأيتـه يقف على قدميه ، وينظر من النافذة إلى المطر المنسكب ، وقد تجهم وجهه ، كأنه لم يكن ينتظر ذلك ..

وعندئذ أسرعت والدتي نحوه وهي تقول :

– انك لن تسافر في مثل هـــذا الجو ، انتظر ريثما تصحو السماء ، فقد أعددت لك قدحاً لذيذاً من القهوة ..

ومدّ أبي يده الى جيبه فأخرج غليونه وهو يقول :

– إن ماريانا زوجتي على صواب ، فهـــذا المطر لن يطول أمره .. وهو خطر لانه يجعـــل الطريق مليئة بالأوحال ، بحيث يستحيل على المرء ان يسير عليها ، سواء أكان راكباً أم راجلاً ، مخافة ان تنزلق به القدم فيهوي إلى الأرض أو الى النهر .. ولهذا أنصحك بالبقاء عندنا يوماً آخر ، ريثما تنشف الأرض ..

ومن المؤكد عندي ان الغريب أرضته هذه الدعوة ، ولكني

حذرت من تجهم وجهه انه كان يفضل السفر على البقاء ، ثم سمعت والدي يقول :

– ولا تنسى ان جوادك تعب جداً ، ولو كنت من الاطباء البيطريين لنصحتك ان تتركه وشأنه يرتاح يوماً آخر .. ومثل هذا اقوله لك .. ثم اني في الوقت نفسه أريد منك البقاء لتشاهد أرضي ، وترى ما قمت به من الأعمال فيها !!

وشاهدت أبي ينظر إلى أمي كمن يطلب منها النجدة والمعونة ، وقد أدهشتني هذه الحركة كما أدهشتها ، فقد عودنا والدي أن لا يستريح ولا يهدأ ، منصرفاً إلى عمله دائماً وأبداً ، ولهذا أدهشنا كلامه ، وما صرح به من استعداد للراحة ، لتسلية الغريب .. وقد فطنت أمي إلى حركته هذه فراحت تقول :

– إن بقاءك يسرنا كل السرور ، فليس من عادتنا ان نستقبل مثلك من الزائرين ، ولست أكتمك اني في سبيلي إلى صنع طعام جديد أريد أن تتذوقه ، لان زوجي وولدي يأكلان كل شيء ، ثم لا يستذوقان شيئاً ..

ثم أخذت بالتحدث إليه وقالت :

– ولتعلم اني شديدة الرغبة في معرفة الازياء النسائية الاخيرة ، وأنت قد طفت كما سمعت منك أكثر بلاد الدنيا ، ولهذا لن اسمح لك بالذهاب قبل ان تحدثني بكل ما شاهدته وسمعته من أخبارها وأشكالها ..

وعاد الغريب إلى كرسيه وهو يقول :

– يبدو أن الأمر قد خرج من يدي .. ولعل هذا يحدث لأول مرة في حياتي ..

ومدّ يده إلى قدح القهوة ، فرشف منه جرعة ، ثم أخرج سيجارة راح يدخنها ، وكنت ألحظ بين كل فترة وأخرى ، أنه كان أبداً ينظر إلى الطريق الممتد أمامنا ..

٢

جذوع الشجرة

حسبت أن أمي كانت تمزح حين سألت شين عن الأزياء النسائية الجديدة ، ولكنه ما كاد يستقر على كرسيه حتى أخذت مكانها الى جانبه ، وأخذا يتحدثان فعلاً في هذه الموضوعات التي لم تكن لتسرني ولا تهم والدي ، وإن تظاهر أبي بعدم الاهتمام ، مستمعاً الى الحديث وهو يدخن غليونه ، محاولاً من وقت الى آخر أن يجرهما الى الحديث عن المزرعة والزراعة دون ما جدوى ..

وظهر لي ما لم أفطن له قبلاً ، وهو أن شين كان بارعاً جداً في الحوار ، طريف الحديث ، رائع النكتة ، فقد انقلب الجو رأساً على عقب ، حينما استقر في مكانه ، يروي قصة من هنا ، ونادرة من هناك ، فتطرب أمي ويضحك أبي ، وأبتسم بدوري وقد نسينا جميعاً أنفسنا ، فلم نفطن الى المطر الذي توقف ، ولا الى الشمس التي طلعت وأشرقت ..

وعندئذ انتصب أبي فجأة ، وصاح بصديقه ليتبعه فيشاهد

أرضه ، وإصلاحاته ، وزراعته ..

وكنت أسبق الجميع الى الباب ، ففتحته لهما ، وتقدمتهما الى الخارج ، بينما وقفت والدتي على عتبة الباب تنظر الينا ، في طريقنا الى الأرض المخضوضرة ..

وبدأ والدي يتحدث ، ولم يفتر عن الحديث طيلة الساعة التي صرفناها في المزرعة ننتقل من مكان الى آخر ، والغريب يستمع له ولا يقول شيئاً ، وكنت أراقبه فإذا به أبداً ينظر الى الطريق العام ، والى الأرض المحيطة بأرضنا ، والتي كانت تخص جارنا المستر فلتشر ، حتى كأنه كان ينتظر شخصاً أو خبراً ..

وتوقف والدي فجأة لما وقف الى بقية شجرة ضخمة لم يوفق الى ازالتها مع كل ما حاوله في سبيل ذلك ، ورفع رأسه ينظر الى شين فإذا به ينظر أيضاً الى جذوع الشجرة ..

وكانت هذه بقية شجرة ضخمة قديمة ، ما في ذلك شك ، ورثناها مع الأرض حين نزلنا الوادي ، وكانت قد تبسطت في الارض ، وتمكنت منها ، بحيث كان من الصعب رفعها وتقطيعها ، ولو أنها كانت مستوية الأطراف لصرفنا النظر عن التفكير بها ، ولكنها كانت ترتفع من هنا وتنخفض من هناك ، بحيث كان من العبث الافادة منها ، أو اقامة شيء فوقها ..

وكان والدي قد صرف الأيام العديدة في تقطيع أوصالها ، فلم يوفق كثيراً .. وحاول احراق أطرافها التي كانت بحجم الشجرة المتوسطة ، فلم تؤثر عليها النار ، فتركها وشأنها بعد أن أعجزته وأتعبته ..

وقال أبي وهو ينظر اليها :

– إنها في الواقع الشيء الوحيد الذي أعجزني في هذه المزرعة حتى الآن ، ولكني سأذللها مع الأيام ما في ذلك شك ..

وسكت ملياً وهو يضرب أطرافها بقدمه ثم قال :

– ولست أكتمك أني بدأت أميل اليها، فهي شديدة حامية تدافع عن نفسها ، ولا تسمح لأحد أن يمزقها ، وإني لأحب الشدة والقسوة ما كانا في سبيل المدافعة عن النفس ..

وتوقف أبي عن الحديث فجأة ، لما شاهد شين ، ينظر الى الطريق العام ، متنصتاً حذراً.. وبعد ثوان سمعنا وقع خطوات جواد يتقدم نحونا بالتأكيد ..

فأخذنا ننظر لنرى من يكون القادم ، وبعد قليل ظهرت عربة تندفع في وسط الطريق ، من بين الأشجار التي حجبتها عنا في أول الأمر ، فقال شين ضاحكاً :

– ألم تقل لي ان الطريق لا تصلح للسير بعد المطر ، فكيف استطاعت هذه العربة أن تسير دون أن تزلق جيادها ، أو تدق أعناقها ؟..

وهز أبي رأسه وقال :

– هذا جاك ليد .. وكنت أنتظر قدومه من وقت لآخر ، وكل ما أرجوه أن يكون قد جلب لي معه المحراث الذي أوصيته عليه ..

وكان ليد هذا تاجراً نقالاً يجلب لنا من المدن البعيدة ما لا نستطيع الحصول عليه في البلدة التي نحن فيها .. وكنا في كثير

من الأحايين نكلفه بما نحتاجه ، فيحمله الينا بعد أيام أو أسابيع ولكنه كان رجلاً كثير المشاحنة ، كثير الطمع لا يقنع بالربح المتواضع ، يطالبنا بأضعاف ثمن ما يحمله ، متكلفاً أنواع المخاتلة والكذب في سبيل ذلك ..

وأسرع والدي نحوه ، بينما وقف الغريب أمام باب المنزل ، يراقب ما يجري ، كأن الأمر لا يثير اهتمامه ..

وبعد أن حيا « ليد » والدي وصافحه ، قال له :

– لقد جلبت لك ما طلبته مني .. وهو من أحسن ما صنع من نوعه .

وأخذ والدي يتحسس المحراث الموجود داخل العربة ثم راح يقول :

– هذا بالتأكيد ما أنا بحاجة اليه ، ولكنك عندما تبدأ الحديث بأنه الأفضل من نوعه ، تكون النتيجة أنك ستطلب سعراً مرتفعاً فما هو الثمن الآن ؟.

وقال ليد بصوت منخفض : لقد كلفني أكثر مما ظننت وارتقبت، حين كنت أتحدث اليك بشأنه ، ولكنك ستسر به، ولسوف يوفر عليك كثيراً من المشاق ..

فصاح به والدي : دعك من هذه المقدمات ، فما هو ثمنه ؟

– سأرضى بالخسارة لأرضيك ، وإني لمستعد لقبول مائة دولار فقط ..

وسمعت عندئذ صوت شين يقول هادئاً :

– لقد رأيت مثله في البلدة التي مررت بها ، وكان السعر الموضوع عليه خمسين دولاراً فقط ..

واهتز ليد لما سمع الصوت ، ورفع رأسه ينظر الى الغريب ، الذي لم يتحرك من مكانه ثم راح يقول :

– هل سألك أحد عن رأيك ..؟

– أبداً .. لم يسألني أحد ..

وعاد ليد يخاطب أبي قائلاً :

– لا يغرنك ما قاله .. فقد عرفته الآن .. وسمعت عنه كثيراً في أثناء الطريق ، لا أحد يعرفه ، ولم يوفق أحد الى معرفته ، وأما أنا فأظن أنه من هؤلاء الذين طردوا من بلدهم ، فهو يحاول الاستقرار في مكان لا يعرفه أهله ، ولم يسمعوا به .. وإنه ليدهشني أن أنزلته عندك ..

– إن هناك أموراً كثيرة ستدهشك غير هذه .. والآن ما هو سعرك ..؟

– السعر ما ذكرت ، ولكني سأحسم لك عشرة بالمائة من ثمنه لأنك من زبائني ، ومن يدري فقد يكون هذا الغريب قد شاهد واحداً يشبهه بالسعر الذي ذكره ، ولكنه ليس بمثل هذا قوة ومتانة ..

وسكت أبي ملياً ، وكأنه لم يسمع ما قاله شين ، وضاق صدر ليد من سكوته وصاح يقول :

– أتصدق كلام هذا المتشرد دوني ، ارضى أن يتهمني بالكذب .. انظر اليه ، ان منظره كله يدعو الى الاشمئزاز

ويبعث على الحذر ..

وتوقف ليد عن الكلام وتراجع مذعوراً ، لما شاهد الغريب ينتصب في مكانه ، بعد أن كان يعتمد على العامود القائم أمام الباب ، ونظرت إلىّ الغريب في هذه اللحظة ، فشاهدت البريق الذي أخافني للمرة الأولى يلتمع في عينيه ، وانتظرت أن يقفز على التاجر بمثل لمح البصر ، فيمزقه إرباً ..

ثم سمعت أبي يقول :

– نعم .. إني أصدق ما قاله ، ولتعلم إني أعرف الناس من النظرة الأولى ، وما قاله هو الحقيقة ، فثمن هذا المحراث خمسين دولاراً ، وسأعطيك عشر دولارات ربحاً ، ومثل ذلك لنقله إلي ، فإن أرضاك هذا السعر فبها ، وإلا فما عليك إلا أن تغادر أرضي حالاً ..

وتقبل « ليد » حكم والدي دون أن يقول كلمة ، وتناول المال ، وأسرع إلى عربته هارباً ، كمن أصابته جنة ، أو كأنه خشي أن يتعرض لخطر عاجل ان استقام عندنا دقيقة أخرى ..

وبعد أن انتهى والدي من النظر إلى المحراث وتقليبه ، رفع رأسه يبحث عن الغريب ، فلم يجده ، ثم ما عتم أن شاهده يخرج من المخزن الذي نحفظ فيه محاصيلنا وبيده فأساً ، في طريقه إلى حيث كانت بقايا الشجرة القديمة القاسية ..

فأخذناه بأنظارنا حتى غاب عنا ، ثم أخذنا نسمع صوت الفأس يسقط على بقايا الشجرة بقوة لم أكن أتوقع أن يصدر

مثلها عنه ، خصوصاً وأنه كان أضعف من والدي جسماً ، وأقل وزنـــاً ..

●

ولست أذكر بالتأكيد مـا فعلته ضربات الفأس في نفسي ، لقد كانت أشبه بالموسيقى المرحة الثائرة منهـــا إلى شيء آخر كما ذهبت بالرعشة التي كنت أستشعر بها حين كان يغشاني الغريب بنظره ، أو يحدق في وجهي بعينيه ..

لقد كانت ضربات الفأس قوية نشيطة حـادة ، تدل على أن صاحبها يحمل ساعدين من الفولاذ والحديد ، وإنه كما قالت أمي رجل خطر . وقد يكون خطراً جداً ، ولكن ليس علينا .. كما قال أبي .. ثم إنه لم يبق في نظرنا غريباً ، لقد أصبح واحداً منا يشعر بشعورنا ، ويحاول مساعدتنا ..

وتلطعت أنظر إلى وجه أبي فما كدت أرفع رأسي حتى رأيته يسرع إلى حيث كان شين ، يضرب بفأسه أكـــبر جذع من الشجرة الضخمة ، ثم سمعته يقول له :

– ما كنا لنكلفك هذا ، ولا كان هذا من شأنك ..

ورفع شين رأسه ملياً وقال وقد علت وجهه ابتسامة رقيقة:

– يجب على المرء أن يدفع ديونه ..

ثم عاد إلى شأنه ، كأن أحداً ليس أمامه .

واستشعرت بدوري بشيء من الجرأة فقلت له :

– إنك لست مديوناً لنا بشيء . فكثيرون من أمثـــالك

ينزلون عندنا ثم يذهبون في شأنهم .. بعد أن يتناولوا معنا بعض الطعام ..

وصاح والدي يقول لي :

– كلا يا بوب إنه لا يقصد طعامنا في قوله ..

وخيل إلي أن أبي قد أصابته رقة ، وأنه يحاول أن يضبط دمعة ترقرقت في عينيه ، بينما كان ينظر إلى ضيفنا هادئاً صامتاً .

ووقفت أنا وأبي ننظر إليه .. والفـــأس يسقط في دفعات متوازنة على أصل الجذع الصلب فيطيح ببعض أجزائه مرة بعد أخرى ، حتى أصبح أخشاباً صغيرة منتشرة هنـــا وهناك على الأرض ..

وظننت أنه وقد تمكن من هذا الجذع سيأخذ لنفسه بعض الراحـــة ، ولكنه لم يفعل ، فما كاد ينتهي من هذا القسم حتى استدار للقسم الآخر ، لم يتوله التعب ، ولا مسه الأعياء ، فدهشت لأمره ، وعجبت لقوته وجلده ..

وأفقت فجأة من الذهول الذي تولاني ، على صوت خطوات والدي يمضي إلى المخزن فيجلب منه الفأس الثاني ، ثم يتخير لنفسه جذعاً آخر ، فيهوي عليه بفأسه ، دون أن يقول كلمة ، أو تصدر عنه صرخة سأم كما كان من عـادته أن يفعل دائماً وأبداً ، وبعد قليل نظم ضرباته بحيث أصبحت تتناسب مـــع ضربات الغريب ، وتساويها قوة ومتانة ، وإن كنت أشعر في أعماق قلبي أن الغريب كان أنشط من والدي حركة ، وأمضى ساعداً .

وقفت في مكاني مشدوهاً أنظر إلى هذا ملياً ، وإلى ذاك قليلاً

وضربات الفأسين تتساقط على الجذع ، معاً ، وبأنغام ما سمعت في حياتي أعذب منها ..

ولست أدري كم مضى عليّ من الوقت في هذه الحالة، لما سمعت صوت أمي يقول :

– ألا تريدان أن تنظرا إلي ..؟

واستدرت إليها ، فإذا بي اشاهد عجباً ، رأيتها قد ربطت شعرها كما نصحها الغريب أن تفعل ، ووضعت قبعتها على النحو الذي وصفه ، فتبدلت تبدلاً عجيباً أرضانا وأعجبنا ، وهزّها طرباً وسروراً ، ونظرت إلى أبي يقف مشدوهاً عند رؤيتها في هذه الحالة ، والغريب ينظر إليها ضاحكاً وهو يقول :

– لقد تعلمت الدرس بأسرع مما كنت أظن ..

وعندئذ صاحت امي في وجه أبي تقول :

– ألا تخبرني أنك راض عن زينتي ..؟

– أنت تعلمين يا ماريان أني راض عنك ، مسرور بك ، في اي وقت ، وأية ملابس، وإنك عندي أجمل امرأة في الوجود ..

وكان الغريب في هذه الاثناء قد عاد إلى عمله ، فتبعه أبي ، فضاق صدر أمي وقالت لهما :

– ألا تكفان عن العمل ..؟ ما هذه الراحة التي تحدثت لي عنها في هذا الصباح يا جو ..؟

فقال والدي : قد تكون غريبة في نظرك ، ولكني لم أرتح في حياتي مثل راحتي في هذا اليوم ..

وعندئذ هتفت أمي تقول :

– انكما ستتوقفان عن العمل شئتما أم أبيتما ، فقد أصبح الطعام جاهزاً على المائدة ، فهيا بنا ..

وجرينا خلفها دون ما اعتراض ، وتناولنا طعامنا في هدوء عجيب ، فقد لاذ الغريب بالصمت ، وفعل أبي مثله ، فتناولت الحديث أمي من أول الطعام إلى آخره، فلما انتهينا أسرع الغريب وأبي إلى فأسيهما ، وبقيت أنا وأمي في المطبخ نتحدث ونتندر فقصصت عليها ما كان من شأن ليد مع الغريب ، وكيف ملأني الاضطراب ، لما حدقت في وجه الغريب ، ورأيته ينظر إلى ليد تلك النظرات النارية القاسية المخيفة ..

جريت حول المزرعة ردحاً من الزمن ، ولكني كنت أسمع أبداً صوت الفأسين سواء أكنت بعيداً أم قريباً ، فلما أصبحت بعد ساعة خلف المخزن شاهدت امي تتمشى حوله ، فلما رأتني هتفت تقول :

– ما رأيت مثل جهاد هذين الرجلين لاقتلاع هذه الشجرة المزعجة .. ولا أكتمك يا بني انه عمل صعب مرير .. لا يطيقه إلا القليل من الناس ، وقد تمكن منه ابوك والضيف الغريب .. في ساعات قليلة من الزمن ..

وسكت أنتظر المزيد من حديثها ، ولكنها ما عتمت أن اسرعت نحو المطبخ فتبعتها ، فإذا هي في سبيل تحضير كمية من البسكويت ، ثم وقفت تشرف على طبخها في الفرن فلما نضجت

وضعتها في صحن كبير ، وأسرعت به نحو الرجلين ، وبعد ان وضعته أمامهما قالت :

– قد تكون ألمت بكما جُنة ، ولكني لا أريد أن أكون أقل جنوناً ..

ومضت في سبيلها نحو البيت ، وبعد قليل اختفت عن الأنظار ، فنظر الرجلان الواحد منهما إلى الآخر ، ثم ألقى الغريب بفأسه إلى الأرض ، وفعل أبي مثله ، وأخذا يلتهمان القطعة بعد الأخرى بنهم غريب ، حتى أتيا على الصحن كله ..

فحملت الصحن الفارغ إلى أمي ، وهربت نحو النهر ، فقد كانت ضربات الفأسين لا تفارق اذني ، فلما عدت بعد ساعة إليهما ، وجدتهما قد انتهيا من الجذوع إلا أقلها ، وكان والدي يحاول أن ينتزع من الأرض البقية من أحدها ، ولكنه كان شديداً قوياً متيناً في الأرض فأسرع الغريب إلى مساعدته ، وما زالا به معاً حتى انتزعاه من مكانه ولكن بعد عناء عظيم ، وجهود ما أظن أن عدداً من الرجال يطيقها ..

وأسرعت إلى البيت أبشر والدتي بالنهاية ، فأسرعت بدورها تعدو لتشاهد بعينها كيف انتهى الرجلان من تصفية هذه الجذوع التي كانت شغل والدي الشاغل لأشهر عديدة خلت ..

وبذلك انتهت معركة الشجرة الضخمة ، وعاد الرجلان إلى المنزل .

فلما أبصر أبي أمي صاح يقول :

– إني لم أشعر بالراحة في حياتي ، مثل شعوري في هذا اليوم ..

وأما الغريب فقد قال ضاحكاً :

– وأما أنا فبحاجة إلى طعام مهما يكن نوعه من يديك الجميلتين.

وكانت أمي قد استعدت لطعام من الخضر واللحوم ، لما شاهدت عناد الرجلين في انتزاع الجذوع حتى النهاية ، فجلسنا إلى طعامنا نأكله بشهية ما أعتقد أننا عرفنا مثلها في حياتنا ..

ولكن كان هناك شيء واحد أزعجنا ، وأضحكنا في وقت واحد ، وهو أن الطعام لم يكن كافياً ، فأتينا عليه جميعه ولما نشبع ..

٣

رجل يدعو إلى الدهشة

أفقت في اليوم التالي من نومي متأخراً ، فلم أغادر فراشي حالاً ، وكانت أمي قد أقفلت الباب عليّ حتى آخذ لنفسي حظاً رحبا من الراحة، فاستعرضت حوادث اليوم الماضي وفطنت إلى التبدل العظيم الذي طرأ على والديّ ، فقد أصبحا أكثر حركة ونشاطاً من قبل ، وكان سبب هذا نزول الغريب الذي يبعث وجهه الحركة والنشاط في كل شيء بيننا .. وأخذت أفكر من يكون ؟.

ولماذا هذا الصمت الذي لاذ به عن ماضيه وحاضره .؟

ولمَ لا يحدثنا بمغامراته إذا كان من أصحاب المغامرات ؟

وما هو غرضه من قدومه إلى وادينا على ظهر جواده ؟

ثم خطر لي عظيم الخطر الذي يتعرض له المرء حين يركب وحده في أرض مثل أرضنا، وجبال مثل جبالنا.. وتساءلت : ترى ألم يفطن الغريب إلى هذا الخطر ، وهل كان بمقدوره أن ينجو لو تعرّض له اللصوص وقطاع الطرق برصاصهم وبنادقهم؟

ثم تذكرت أن الغريب قد أعرب عن رغبته في مغادرة المنزل صباح هذا اليوم ، وخشيت أن يكون قد فعل قبل أن أراه ، فأسرعت إلى ارتداء ملابسي، فوجدت الجميع لا يزالون يتناولون طعام الصباح ، في هدوء وسكون ..

فصاحت أمي تقول : ما الذي بك ، حتى اقتحمت علينا الغرفة بمثل هذه السرعة ؟

فغمغمت أقول : خشيت أن يسافر دون أن يراني ..

فقال الغريب : ما كان لي أن أسافر دون أن أراك ..

والتفت إلى أمي قائلا: ولن أنسى طعامكِ أبداً يا سيدتي.. فاذا طرق بابك عدد من المسافرين، فاعلمي أني كنت في سبيل التحدث عن طعامك الشهي في طول البلاد وعرضها ..

فقال أبي : إذا كان الأمر كذلك ، فقد يحسن بنا أن نجعل من هذا المكان فندقاً ، ينعم فيه الناس بالراحة، ولذيذ الطعام..

وأحسست أن أمي قد أطربها هذا الثناء ، وسرها جميل المديح ، وسمعتها تقول :

– لئن عمد والدك إلى إنشاء هذا الفندق كما يقول ، لأجعلن مكانه المطبخ لا يغادره أبداً ..

وفي هذه اللحظة غادر الغريب مكانه على المائدة ، فأدركت أنه يستعد لتوديعنا ، وكنت في سبيل التفكير بكلمة مناسبة ، أرجوه فيها أن يبقى بيننا أياماً أخر ، ولكن والدي سبقني وهتف يقول :

– إنك لتسرع كأنك على ميعاد ، وما انت في شيء من

هذا .. تعال اجلس في مكانك فإن لي حديثاً معك ..

ونظرت إلى وجه والدي فأدركت أنه في سبيل التفكير بأمر خطير ، وشاهدت الغريب يتردد ملياً ثم يعود إلى مكانه وهو يقول :

— كما تشاء ..

فسأله والدي : هل أنت هارب من أحد ؟

فلمعت عينا الغريب ببريق غريب وقال :

— إني لا أهرب من شيء .. ولكني في سبيل البحث عن انسان .. وأقول لك بصراحة أن أحداً لا يطاردني، ولو كنت كذلك لما كنت ممن يهربون ..

فهتف والدي وقد سرّه جواب الغريب يقول :

— هذا حسن جداً .. والآن فلنتكلم بصراحة ، إني لست من أصحاب المزارع الذين يعنون بتربية الأبقار ، ولكني فلاح وأريد أن أظل فلاحاً ، وقد نجحت في عملي حتى الآن، ولكني لا أستطيع العناية به وحدي ، والرجل الذي استأجرته للعمل ، قد اضطر لمغادرة الأرض بعد أن اختلف مع عمال قريتنا ، فأصبحت ترى وحدي، لا أستطيع الاعتماد على أحد ممن ينزلون هذا الوادي ، أو ممن يمرون في هذا الطريق ..

« ولا أستطيع أن أكتمك أني لم اشاهد مثلك في حياتي ، هدوء أعصاب وصلابة جسم ، ولكنك لست من المزارعين ولا من الفلاحين ، ولا ممن يعيشون في القرى والمزارع ، هذا شيء لحظته وأدركته من طريقتك في مأكلك ومشربك .. أنت من أبناء المدن ما في

ذلك شك ، ولهذا فلن أكلفك بالعمل معي .. ولكني بحاجة إليك بحاجة إلى مساعدتك ، فإن جارنا فلتشر كما ظهر لي ، يحاول مضايقتي ومضايقة جيرانه ليتنازلوا له عن ارضهم .. ونحن بحاجة الى مثلك في المعركة ..

وقال الغريب بصوت هادىء :

— إذن فالمستر فلتشر يحاول مضايقتك ..

— ولكني لست ممن يخافون ، ولا من الذين يهربون من المعركة ولكن لا تنسى أني وحدي ، وأن جماعة فلتشر عديدون ..

وبلع والدي ريقه ثم تابع حديثه يقول :

— ثم إنك بحاجة إلى الراحة ، وبحاجة إلى هذا الهواء الطلق مدة من الزمن ، ويبدو لي من وجهك أنك سئمت المدن وضاقت بك الأرض ، فأخذت تضرب في الدنيا على غير هدى ..

فضحك الغريب وقال :

— قد أكون سئمت حياة المدن بعض الوقت ، هذا صحيح وأما أني أضرب في الأرض على غير هدى فلا ..

« إني في الواقع افتش عن شخص فجعني بصديقة لي ، إنتقاماً مني .. لأني قضيت على عصابته فمزقتها وشتتها .. فلما لم يجد إليّ سبيلاً ، قتل صديقتي وأطلق ساقيه للريح .. وقد علمت أنه في هذه الجهات فجئت أبحث عنه .. فإذا انتهيت من أمره ، عدت من حيث أتيت .. »

واهتزت أمي من الرعب لما سمعته يتكلم بهذه اللهجة الهادئة وصاحت تقول :

– أتقتله إذا عثرت عليه ..؟

– ما أظن أني سأحتاج إلى قتله .. فإنه إن شاهد وجهي يموت لساعته ..

وعرتني رعشة ، فقد أدركت في هذه الساعة أني في الواقع أمام شخص خطر جداً ، وأن ما قالته والدتي حين رأته لأول مرة لم يكن أقل من الحقيقة في قليل ولا كثير ..

وتابع الغريب حديثه يقول :

– وأما إني بحاجة إلى الراحة فهذا صحيح ، وإني أؤكد لك بأن اليومين اللذين قضيتهما في ضيافتك كانا من أبهج أيام حياتي ولن أنساهما ما حييت ..

فعاد والدي يقول : مادام الأمر كذلك فأنت بحاجة إلى أيام أخر .. ثم إن صاحبك الذي تفتش عنه في هذه الأرض قد يظهر فيها بين يوم وآخر .. ولا تنسى أننا أمام الطريق العام ، ومن يدري فقد تقوده قدماه إلينا ..

فقال الغريب : هذا ممكن ..

فهتف والدي يقول : إذن فهل ترضى بالبقاء أياماً أخر ، تأخذ لنفسك فيها حظاً من الراحة ، وتساعدني على تذليل هذا الخلاف الناشب بيني وبين جاري ..

وصمت الغريب ملياً ثم قال : سأفعل .

●

وشعرت أن والدي عند سماعه هذا الجواب كاد يطير من

شدة الفرح ، ولكن الغريب ما عتم أن تابع حديثه قائلاً :

– ولكن الذي أريد لفت نظرك إليه ، هو أني لا أصلح لعمل شيء من أعمالك ، ولكني أقبل بالبقاء في ضيافتك أياماً أخر ، فإني في الواقع شديد الرغبة في التعرف على جارك ..

وقفز والدي من مكانه ومدّ يده يصافح الغريب ، ويتحبب إليه وهو يقول :

– ورجائي إليك أن تذهب إلى المدينة فتأخذ ما تحتاجه من المخزن العام على حسابي ..

فضحك الغريب وقال :

– ولا هذا أيضاً .. فإن عندي من المال ما يكفي لشراء بذلة جديدة تقوم مقام هذه التي أضرّ بها السفر والتجوال ..

وما كاد ينتهي من كلامه حتى غادر المنزل في طريقه إلى المدينة القريبة ، التي كانت لا تبعد عنا أكثر من ميل واحد ..

وبدا والدي مرحاً مسروراً بعد خروجه ، وصاح في أمي يقول :

– لقد بدأت الشمس تشرق في وجهي ، فقد نجحت في اجتلاب الشخص الذي أحتاج إليه عند الحاجة إليه ..

فهتفت أمي تقول : ترى هل أحسنت فيما صنعت ؟ وما الذي يستطيعه مثله ؟ نعم لقد ساعدك في تقطيع الجزوع .. ولكن هذه مسألة خاصة ، فهو كما يبدو لي ، متعود على الحياة الناعمة والبذخ ؛ كما أنه لا يعرف شيئاً عن الزراعة ..

– وهل كنت أعرف شيئاً عن الزراعة لما بدأت في تأسيس

هذه المزرعة .. إنه من الذين يحسنون ما يعملون ، وستزين مع الأيام مصداق قولي هذا ..

– هذا ممكن ..

– ألاحظت موقفه لما حدثته عن فلتشر ومضايقاته . إنه أدرك إني في موقف حرج فلم يتركني لمصيري .. إني بحاجة إلى مثله فلا تراعي ..

– ولكنه ليس مثلنا ؛ فقد عاش حياة تختلف عنا ؛ ومن يدري فقد لا ترضيه الحياة عندنا ..

وكذلك انتهى الحوار بين أبي وأمي حول الغريب ، والواقع أني لا أزال أدعوه بالغريب بالرغم عن كونه قد أعلن عن اسمه « شين » ، ولكنه بالتأكيد لا يزال غريباً في نظري ، لم أفهم ؛ ولم أصل إلى نفسه ، ولن أوفق إلى هذا في مقبلات الأيام ..

وعاد الغريب في المساء حاملاً ما اشتراه من المخزن العام ، بذلة جديدة ، وقميصين ، وبعض الجوارب ، فأسرعت لاستقباله فهتف يقول بعد أن ترجل عن جواده :

– إخدم جوادك يخدمك .. لقد حملني جوادك هذا ما يقارب الألف ميل في الأسابيع الأخيرة ..

ومضى نحو والدي الذي كان يقوم ببعض الأعمال الزراعية وكان يبدو للناظر من أول وهلة أنه ليس من أرباب هذا الفن ، ولا هو من أصحاب هذه الصناعة ، ولكنه في الوقت نفسه كان من الذين لا يترددون عن عمل أي شيء ومساعدة أي انسان ..

ولقد تقطعت أيام على وجوده بيننا ، فإلفناه ، وتعودنا على

وجوده ، فقد كان أبداً دائم المرح ، هادىء الأعصاب ، لا يتنكر لشيء ، ولا يغضبه شيء ، يعمل ما يكلف به ، ويساعد أبي ما دعاه لمساعدته ، ومع دقة جسمه ، ورشاقة أعضائه ، فقد كان قوياً ، شديد البأس ، ثابت القدم .

ولقد سألت أبي مرة :

– ترى أتستطيع أنت أن تتغلب على الغريب لو دعيتما للمصارعة .؟

فضحك والدي من سؤالي وقال :

– لا أدري والله يا بني ، ولكن الذي يجب أن تعلمه أن شين قوي نشيط ، وإني أفضل ألف مرة أن يكون معي من أن يكون عليّ .. في أي وقت كان .

والذي لحظته بعد أن استقر الغريب بيننا ، أنه جعل يأخذ مكانه وظهره إلى الحائط ، مستقبلاً الباب والطريق أمامه ، وكان المكان الذي اختاره ، مكان أبي قبل أن ينزل بيننا ، وضاق صدر أمي لما رأته يفعل ذلك ، وأرادت أن تقول شيئاً ولكن والدي أشار لها أن لا تفعل ، فسكتت على مضض .

ولقد فطن والدي إلى غرضه وأدرك أنه يفضل استقبال القادمين أياً كانوا ، بوجهه لا بظهره ، وهذا غاية في الحذر والاحتراس ..

ولحظت أيضاً وحين يقبل المساء ، أنه لا يجلس إلى جانب النافذة أبداً بل يأخذ مكانه في زاوية من زوايا الغرفة بعيداً عنها ودائماً كان يختار المكان الذي يكون فيه الجدار خلفه ..

كان يفعل هذا كأنه عادة فيه ، أو أمر يلازمه ، فلا يفطن له إلا من يراقبه ، مما يدل على أنه كان أبداً حذراً ، لا يريد أن يؤخذ على حين غرة أبداً ..

وكنا في كثير من الأحايين يزورنا بعض جيراننامن المزارعين الذين كانوا يعتبرون والدي كبيرهم ، وصاحب الرأي فيهم ..

فإذا أخذوا بأطراف الحديث ، جلس الغريب يستمع إلى ما يقولون دون أن يقول شيئاً ، حتى إذا خلونا إليه تبسط معنا ، بخلاف موقفه مع سوانا ..

وكان إلى هذا موضع دهشة الناس وتساؤلهم ، فقد علمنا أن الناس كانوا يتحدثون عنه في المدينة ، والمزارع المختلفة ، وإنهم كانوا يتساءلون من أين أتى .. ومن يكن ..؟

وما غايته في البقاء عندنا ، والعمل معنا ، وما هو من المزارعين ولا الفلاحين ، ولا ممن يعنون بتربية الابقار في كثير ولا قليل .

لقد كان شيئاً غير هذا ، كان من أبناء المدن ما في ذلك شك ، وكان غريباً عن أميركا ، وإن كان يحسن اللغة الانكليزية كل الاحسان ، ويتكلمها بطلاقة غريبة ولكن بلكنة انكليزية ..

ولقد دهشت لما عرفت أن جميع الناس حولنا يتحدثون عنه ، وأن نزوله إلى المدينة قد أثار كثيراً من الدهشة والتساؤل وأن مظهره كان يبعث على الرهبة والشعور الغامض بالخوف

والحذر ..

وتولاهم التردد في شأنه ، فبعضهم كان يفضل لو يذهب في سبيله ، وكان « ليد » التاجر قد حدثهم بأمره ، وما سمعه من الناس في طريقه عنه ، ولكن «ليد» هذا لم يكن من الأشخاص الموثوق بأخبارهم ولهذا لم يأبه الأكثرون لكلامه وحديثه .. ولكن هذا لم يمنعهم من التحدث عنه دائماً ..

ففي ذات يوم وبينا كنت في طريقي مع صديق لي الى شاطىء النهر ، سمعت البعض يتحدثون بشأنه أمام مخزن المستر كرافتون وكان أحدهم يقول :

ـ إنه يشبه الديناميت .. الديناميت الذي لا ندري متى ينفجر فيقوض المكان كله ..

« ولا أكتمكم أن النار موجودة تحت الرماد في هذا الوادي منذ زمن بعد ..

« وقد آن الوقت لظهورها .. وقد يكون هذا لخير الجميع أو لشرهم لا أدري .. »

ورنت هذه الكلمات في أذني وأنا في سبيلي فأدهشتني وحيرتني.

●

وكان مما حيرني أيضاً .. أني لم أشاهد الغريب يحمل مسدساً أو سلاحاً ، وكانت هذه العادة رائجة عندنا في الوادي ، وفي غيره لقد تعوّد الناس حمل السلاح ، ومن لم يكن من المسلحين عدّ رجلاً عجيباً غريباً ..

وأما نحن المزارعون فقد كان آباؤنا وكبارنا يفضلون البنادق لأنها أبعد مدى ، وأما المسدس فما كانوا يطيقونه ، وإنما يكتفون بحزام الجلد حول خصرهم ..

هذا كان شأن أبي ، وشأن غيره ، وأما الغريب فلم يكن يحمل مسدساً كما قلت ، أو بعبارة أخرى لم أشاهده يحمل مسدساً ويسير فيه بين الناس ، ولكني في ذات يوم شاهدته يضع مسدسه تحت الوسادة ، فلما تفحصته في غيابه أدركت أنه من هـــذه المسدسات الجديدة ، التي يستعملها الجيش ، والذي كان من أفضل الموجود من نوعه في عهدنا ..

ولما مددت يدي إليه وأخرجته وتحسسته وجدتـــه هيناً خفيفاً ، وهو ما لم أكن أعهده في المسدسات التي يستعملها سكان هذا الوادي ، ولا بد أنه كان من هذه الأنواع الحديثة المختارة ، وبعد أن أعدته إلى مكانه غادرت الغرفة مسرعاً إلى الخارج ..

فلما اجتمعت إلى والدي هتفت أقول له :

– أتعرف يا أبي ماذا يضع الغريب تحت وسادته ؟

– لا بد أنه مسدس ..

– كيف عرفت ذلك .. هل شاهدته ؟

– أبداً ولكني كنت أنتظر ذلك ..

– إذن لماذا لا يضعه في حزامه ..؟ أتظن أنـــه فعل ذلك لأنه لا يحسن استعماله ؟

فضحك أبي وقال :

– ما أظن ذلك بالتأكيد ، ولست لأعجب إذا رأيته يصيب

الهدف بأسرع ما يكون .. والى أبعد الحدود والغايات ..

– لكن لماذا يخفيه عن الناس ؟

– لست أدري ..

– لماذا لا تسأله ؟

– هذا أمر لن أسأله عنه أبداً .. والأفضل أن لا تتحدث إليه بذلك ..

ولذت بالصمت ملياً حتى قطع أبي السكوت قائلاً :

– بوب .. يحسن بك أن لا تتعلق بالمستر شين كثيراً ..

فقلت : لماذا . أهناك ما يؤاخذ عليه ..؟

– أبداً .. ولكنه من هؤلاء الذين لن يطيلوا المكوث في هذا المكان مدة طويلة فالأفضل أن لا تتعلق به حتى لا يكون فراقه شديد الوقع عليك ..

•

تقطعت أيام أخرى دون ما حادث ، كان الغريب فيها يساعد والدي في مختلف شؤون المزرعة ، وكنت ألحظ أن هذه الحياة قد أعجبته وأرضته ، ومكنته من الراحة التي كان بحاجة ملحة إليها ..

وغادرنا أبي في هذه الأثناء إلى بعض المزارع القريبة لشراء بعض الأبقار والمواشي ، وغاب عنا يومين فقط ، فلما عاد إلينا شاهد عجباً ، إذ تمكن الغريب في أثنائهـــا من توسيع زريبة المواشي ، وإصلاح سياجها ، بحيث أصبحت تسع عدداً محترماً

منها ، فسرّ والدي من ذلك سروراً عظيماً ، وانشرح صدره ، وهجم على أمي يقبلها أمامنا ، ولم يكن هذا من شأنه ، ولكن سروره بهذه الاصلاحات التي تمت في غيابه ، والتي كانت كما بدا لي من أقصى رغباته ، قد سرّته كل السرور فلم يطق ضبط نفسه وعواطفه ..

والواقع أن هذا الغريب كان غريباً بكل ما في الكلمة من معنى ، كان نشيطاً إلى أبعد الحدود ، قوياً إلى درجة الخطر ، سريعاً في عمله ، لا يدانيه شخص فيما يتكلفه سواء أكان يجهله أم يعرفه ..

كان يكفي أن ينظر إلى الشيء نظرة عابرة ، ثم يمضي فإذا به يحسنه كأحسن ما يكون من العمال البارعين ، وهو ما كان يبعث فينا أبداً الدهشة والاعجاب معاً ..

وكانت ايامنا إلى هذا سعيدة هانئة ، فلم يحدث بيننا وبين عمال فلتشر ما يدعو إلى الإحتكاك ، وسبب هذا ان فلتشر كان غائباً في داكوتا ، فلم يكن عماله والحالة هذه يقدمون على عمل يثيرنا أو يثير جيراننا ، بل ان بعضهم كان إذا رآنا سلم علينا ، وتقرب منا ..

وكنت قبل نزول الغريب بيننا أعتبر هؤلاء العمال من الأبطال وأما أبي فقد كان شيئاً آخر ، فلما رأيت الغريب تبدلت شخصاً جديداً ، وأعتبرت أن عشرة من أمثال هؤلاء العمال لا يضارعونه ولا يساوونه لا في الجرأة ولا في البراعة والقوة ..

وصرت إذا خلوت إلى نفسي أدعو الله أن يجعلني مثله ، رجلاً

تتحدث عنه الناس دون أن تعرفه ، وكنت أحس في نفسي بأنه شيء خارق ، وان حياته كانت عبارة عن مغامرات متتابعة ، وحوادث مخيفة رائعة ..

وفي ذات يوم وبينما كنت اصطاد بعض الطيور ، نظرت حولي فإذا به يراقبني ... فسألني :

– كم صرعت حتى الآن ..؟

وطار عقلي من السرور لما سمعته يكلمني بهذه اللهجة التي لا تدل على الاحتقار فقلت :

– سبعة حتى الآن ..

– إذن فاترك الباقي لسواك ، فإنك إن مضيت في سبيلك فقد لا يبقى طير في سماء الأرض ..

وضحكت من كل قلبي ، ثم دعاني إليه ، وأخذ يلقي علي درساً في أصول الصيد ، وحمل السلاح وتوجيهه ، وغير ذلك مما يتعلق به ، فأدركت من حديثه انه بارع كل البراعة في استعمال السلاح ، وتذكرت مسدسه الجميل المخفي تحت الوسادة ..

ولم اكن في الواقع قد شاهدته يحمل سلاحه بيده ، ولكنه لما أخذ البندقية مني ، وأخذ يوجهها بين يديه وهو يتكلم ، استشعرت شيئاً غريباً وهو إنتقال البندقية من يد إلى اخرى بسرعة لم أكن أتوقعها ، ولا رأيت أحداً يطيقها في طول الوادي وعرضه ..

وسمعته يقول : لا تنسى ان السلاح ليس غير آلة كغيره من الآلات ، وانه لا يكون رهيباً قوياً إلا إذا كانت اليد التي تحمله

●

بعد يومين من هذا التاريخ عاد فلتشر من (داكوتا) وأخذ يتحدث في المدينة لمن يريد أن يسمع ، انه قد نجح في استئجار الأرض العامة كلها ، وان على المزارعين الذين استقروا فيها أن يغادروها ، وأن يتوقفوا عن إرسال مواشيهم إليها .. لترعى عشبها ..

وسمعنا ايضاً انه أعلن عن رغبته بأن يكون منصفاً عادلاً ، فيدفع لكل مزارع ما صرفه على أرضه ، ولكننا كنا نعلم عن انصاف فلتشر الشيء الكثير ، ولم يكن أحد منا ليفكر في مغادرة أرضه التي استقر فيها ، وتعوّد عليها ، برضى الحكومة وموافقتها ، ولكننا كنا نعلم ايضاً ان الحكومة بعيدة عنا ، وان علينا أن نعتمد على انفسنا إذا كنا نريد البقاء في مكاننا ..

لم يكن في قريتنا (شريف) ولا مسئول من طرف الحكومة الاميركية يشرف على تسوية الخصومات وفض المشاكل ، فكنا نسوي خصوماتنا بالتي هي أحسن ، وبالاتفاق في أكثر الأحايين وبالقوة ان لم يكن إلى غير هذا من سبيل..

وكانت هذه القرية الصغيرة التي استقرينا حول ارضها قد تقدمت مع الايام فنشأت فيها المخازن الصغيرة ، والبارات ، وكان اشهرها المخزن العام لصاحبه سام كرافتون ، الذي كان يحتوي على عدد من الغرف بعضها لعرض البضائع، وبضها لنزول

المسافرين ، في الطابق الثاني ، كما خصص صالة كبيرة لتكون باراً ، لمن يريد أن يتناول فنجاناً من القهوة أو قدحاً من الأشربة ..

وكان الرجل شديداً في معاملاته إلا انه كان شريفاً صادقاً ، فكان الناس إذا اختلفوا يقصدونه لفض مشاكلهم، وكانت ابنته تشرف على مدرسة القرية ، وتقوم بتعليم الأطفال فيها ..

والواقع انه لو كان عندنا (شريف) للاشراف على الأمن في القرية ، لكان من المفروض أن يصبح من رجال فلتشر وأعوانه، فقد كان فلتشر قوة في الوادي ، يملك الأرض الواسعة، والمواشي الكثيرة ، والعدد الكبير من العمال ..

وكان سكان القرية إلى هذا قوماً هادئين ، يفضلون الوقوف موقف الحياد ، إذا شجر خلاف بين فلتشر وبين المزارعين الذين نزلوا الأرض حول القرية واستقروا فيها، ولكن فلتشر كما قدمت كان قوياً غنياً فكانوا والحالة هذه يهادنونه ويتكلفون مصادقته، ولو كان ضعيفاً لانضموا إلينا وساعدونا عليه ..

وأما كرافتون ، فقد كان رجلاً صادقاً كما قدمت ، وكان يهمه عدم إغضاب أحد من زبائنه ، ولهذا كان موقفه ابداً موقف تريث وترقب ، لا يؤيد واحداً على الآخر ..

وأما اليوم وقد عاد فلتشر من (داكوتا) يحمل الأوراق اللازمة التي تخوله حق استثمار الأرض ، بما فيها الأرض العامة التي نزلناها واستقرينا فيها، فقد أصبح الموقف جاهماً ينذر بالخطر ..

●

وعلى الأثر اجتمع المزارعون في منزل أبي يبحثون الموقف الجديد ، بعد ان نشر المستر كرافنون الخبر بين الناس ، فقال المستر فرانك تري :

– ما الذي يستطيع فلتشر عمله ، ما بقينا في الارض ، التي ستصبح لنا بعد انقضاء ثلاث سنوات على نزولنا فيها .. هذا هو القانون .. وقد سجل جيراننا من الذين نزلوا الأرض قبلنا رضهم باسمائهم ..

وذهب البعض يقولون : ان فلتشر لن يعمل شيئاً ، مكتفياً بالكلام فقط ..

ولكن هناك عدد من جيراننا كانوا يعتقدون بخلاف ذلك ، وان فلتشر ينوي الشر هذه المرة ما في ذلك شك وسوف يحرض اعماله للاعتداء على أرضنا وعلينا ..

ونظر الجميع إلى والدي ينتظرون رأيه فقال :

– قد لا يحرك فلتشر ساكناً في الوقت الحاضر ، وقد لايأمر رجاله بسرقة مواشينا والاعتداء علينا ، إلا بعد أن يقطع امله من الاتفاق معنا ، أو يتمكن من تمزيق صفوفنا ..

« والذي أعتقده انه سيحاول تخويفنا وتهديدنا ، فإن نجح في هذا فبها ، وإلا فإنه سيعتمد وسائل أخرى أشد وأمضى..»

وسكت والدي مليا ثم راح يقول :

– والواقع انه لا يريد أحداً منا في هذا المكان وهو يكرهنا جميعاً ، ولكنه يكرهني بصورة خاصة ، ولهذا فسيوجه إهتمامه إليّ في أول الأمر ، حتى إذا تمكن مني ، كان امر الباقين هيناً

لينا ..

وصاح المستر هول :

– هذا صحيح .. ولكن أتعلم ما هي خطته ؟

– الذي اعتقده انه سيحاول اقناع المستر شين صديقي ، بأنه ليس من مصلحته البقاء في هذا المكان والعمل معي ..

فصاح المستر رايت : كما فعل مع مورلي مساعدك قبلا ..؟

– بالتأكيد ..

وتطلعت انظر الى وجه المستر شين وكان قد اخذ مكانه في طرف الغرفة يستمع الى الحديث وكأنه لا يعنيه ، حتى انه لم يسأل ابي عن الطريقة التي اضطر فيها (مورلي) الى مغادرة مزرعتنا ..

ولكني اعرف ما كان من شأن مورلي ، وكيف انه جاء ذات يوم من القرية بعد ان اوسعه رجال فلتشر ضرباً ورفساً ، وهددوه بالقتل ان ظل في المزرعة ، فاضطر الى مغادرتنا وفر هارباً بجلده ..

ولكني كنت واثقاً ان الغريب ليس مورلي ، وان التعرض له سيكون خطير النتائج على المعتدين ..

ولست ادري لمَ وصلت الى هذه النتيجة ، ولكني كنت واثقاً منها ، وان كنت لم أشاهد شين يخاصم احداً أو يضرب انساناً ..

وقد علمت بعد هذا ، ومما سمعته هنا وهناك ، ان ضيفنا شين سيكون الضحية الاولى ، وان والدي كان على حق في

تفسيره لما يمكن ان يحدث في المستقبل ..

والذي علمته ايضاً ان اتفاق والدي مع شين، قد اعتبر تحدياً منه لفلتشر وجماعته ، بعد ان ضربوا مورلي واجبروه على مغادرة المكان ، فاتفاق والدي والحالة هذه مع شخص آخر كان معناه انه ضرب بانذار خصومه عرض الحائط ، وانه قرر المقاومة الى النهاية ..

وكان الخصوم يتوقعون إذا تمكنوا من طرد شين من الوادي ، ان تصاب سمعة والدي بالصميم ، ولما كان يعتبر أقوى المزارعين ، وأشدهم عناداً ، فإن هذه الصدمة ستقضي على معارضته ومعارضتهم ..

وأخذ الناس في القرية يتحدثون فيما بينهم عما يكون من موقف شين فيما إذا تعرض له جماعة فلتشر وأعوانه .. ونسوا حديثهم عن ماضيه ، وأصله ، ومن يكون؟ وأصبح همهم معرفة فيما إذا كان ممن يحسنون الوقوف والثبات .. أم أنه من الجبناء الذين لا يصمدون ..؟

وكنت إذا مررت في سوق القرية تجمّع الناس حولي يسألونني عنه وعن موقفه ، وما الذي هو الآن في سبيل عمله ، ولما كنت أعلم ان والدي يكره ان أتحدث للناس بمثل هذه الامور الخاصة ، فقد كنت أتكلف التجاهل أمام اسئلتهم العديدة ، وأقول جواباً عليها : اني لا أعرف شيئاً ..

اما شين الذي اثار الوادي واقعده ، فقد ظل هادئاً ساكناً كأن الأمر لا يعنيه ، وكأن هذا الغليان الذي شمل الناس يتعلق

بغيره ..

●

كنت واثقاً أن هذا الغريب كان يعرف كل المعرفة ما يدور حوله وما يتحدث به الناس عنه .. ولكنه لم يكن يأبه لهذا ولا يبالي به ، وكنت ألحظه من حين لآخر ينظر إلى أرض فلتشر التي كانت بجوارنا خلف النهر ، والتي أخذ رجاله يظهرون فيها ويتظاهرون كأنهم يعملون في الأرض ، وما كانوا من العاملين .

وفي اليوم التالي لهذه الحوادث ، أعرب شين عن رغبته في الذهاب الى السوق ، فعرض عليه والدي أن يرافقه ، لمشترى بعض حاجاته ، فقال شين :

ـ الأفضل أن تبقى مكانك ، فباستطاعتي أن ابتاع لك ما تشاء ..

وصاح والدي : ما هذا الكلام .. أتظن أني أدعك تذهب بمفردك ؟ لنفرض أن الجماعة ...

وفي هذه اللحظة أدرك والدي انه تجاوز في كلامه حدود اللياقة .. فقطع حديثه ثم راح يقول :

ـ المعذرة .. لقد تسرعت فيما قلته .. ولك بعد هذا أن تذهب الى حيث تشاء ..

وهزّ الغريب رأسه باسماً وهو يقول :

ـ لا عليك .. ولكني اؤثر ان لا تكون كثير القلق لمصيري فما انا ممن يعيرون كبير اهتمام لأمثال هؤلاء الخصوم ..

وذهب الى جواده فقفز عليه ، وسار في سبيله ، فانتظرت حتى غاب والدي حول البيت فتبعته ، وكنت لحظت ان احد فرسان فلتشر كان يراقب منزلنا ، فلما شاهد شين يغادره وحده سار يعدو مسرعاً على جواده .. الى حيث تقوم منازل العمال في ارض فلتشر ..

واني لواثق ان شين فطن الى حركته ، ولكنه لم يلتفت اليه ثم سمع وقع خطواتي خلفه ، فاستدار فشاهدني ، فصاح يقول وهو يمدّ يده ليرفعني اليه :

ـ انك لا تبرح تدور حولي ... ولكن تعال فلسوف ابتاع لك بعض المبردات ..

فلما وصل شين الى السوق وانتهى من مشترياته ، ذهب الى بار المستر كرافتون ، وطلب قدحاً ..

وكان في البار عدد من الناس يتحدثون ويشربون .. وكنت في هذه الأثناء ، وبعد ان اخذت حصتي من المبردات قد وقفت أمام باب الصالون انظر الى المارة ..

وفجأة شاهدت اثنين من عمال فلتشر يسرعان نحو النار ، فلما قارباه ، ترجلا عن جواديهما ، وتقدما نحو النافذة ينظران الى الزبائن ، ويحدقان في وجوه الحاضرين ..

وكنت اعرف احدهما ، وكان يدعى غريس ، وكان مشهوراً بجرأته وعدم مبالاته ، وأما الثاني فكان جديداً عليّ ، ولعله كان من هؤلاء الذين جلبهم فلتشر معه عند عودته مؤخراً ... ولم يلمحني الرجلان ، ولا نظرا الى ناحيتي ..

كان همهما كما ظهر لي .. وثبت بعد ذلك ، ان يتأكدا من وجود شين في الحانة ..

وأطلّ الرجل الجديد الذي لم اكن اعرفه يتفحص الموجودين وأشار « غريس » بيده الى شين ، فنظر اليه الرجل ملياً ثم ما عتم ان تراجع مذعوراً ..

وكان شين في هذه الأثناء يشرب قدحه ، ويدخن سيغارته ، وقد جعل ظهره الى الحائط بحيث كان يشاهد كل داخل او خارج ..

وعاد الرجل بعد أن تراجع مذعوراً لأول مرة ، يحدق من جديد في وجه شين ، ثم ما عتم ان اسرع يعدو الى جواده ...

وظهرت الدهشة على وجه غريس ، واسرع خلف صاحبه ، وكان هذا قد قفز الى جواده ، فصاح به غريس :

ـ ماذا بك ؟

ـ لا شيء .. سوى اني قررت مغادرة هذا المكان ..

ـ ولكن .. ما السبب ..؟

ـ اني ذاهب يا صديقي .. ولن أعود ..

ـ اسمع .. اتعرف هذا الرجل ؟

ـ اني لم أقل اني اعرفه .. ولن يستطيع احد ان يتهمني بأني قلت ذلك ، والأفضل ان تخبر فلتشر بقراري هذا .. والواقع اني اشك في ان تكون هذه القرية صالحة للسكنى بعد الآن ...

وضاق صدر غريس .. وجُن جنونه ، وصاح بصاحبه :

ـ يا لك من جبان ..

واصفر وجه الرجل من الغضب ، ثم تمالك نفسه وقال :

– لك أن تقول ما تشاء ..

وأسرع يعدو على ظهر جواده، دون أن يقول كلمة أخرى..

●

وقف (غريس) حائراً لا يدري مـا يفعل ثم غمغم يقول :

– سأذهب إليه بنفسي .

ومضى يمشي إلى الحانة .

اسرعت خلفه ، ووقفت غير بعيد من البـاب وخلف بعض المقاعد لاشاهد ما يكون من شأنه ..

وكان شين في هـذه الأثناء قد وقف أمام البار مستنداً عليه بإحدى يديه .. وفي اليد الأخرى كان يحمل قدحه ..

فلما دخل غريس إلى الحانة ، لم يرفع نظره إليه ، وان كان قد لمحه بالتأكيد ..

واقترب غريس من البار ، بعد أن سلم على الموجودين وطلب زجاجة من الويسكي وقدحاً ..

وخيل إليّ في هذه اللحظة أن صديقنا نظر إلى غريس من طرف عينيه ، ثم أدارهما عنه ، كأنه لم يأبه له ، أو كأنه ممن لا يحسب لهم حساب ..

وانتظر (غريس) حتى رشف من قدحه كمية محترمة ، ثم التفت إلى شين وهتف يقول :

– هالو .. يا فلاح ..

قالها بما يشبه الاحتقار .. ونظر إليه شين ملياً ثم قال .

– أتكلمني ؟

– بالتأكيد .. فليس يوجد أمامي غيرك .. تعال شاركني في شرابي .

ودفع زجاجة الويسكي نحوه ..

وتناول شين الزجاجة وصب لنفسه قدحاً ، فلما وضعه على شفتيه صاح غريس يقول :

– هل أنت ممن يشربون الويسكي ..؟

فقال شين وهو يضع القدح على البار :

– لقد تعودت على أحسن من هذا النوع..ولكن لا بأس ..

وضرب (غريس) يداً بيد وصاح يخاطب الموجودين في الحانة:

– أسمعتم ما يقول .. هذا الفلاح يشرب الويسكي ..ما كنت اظن أن أحداً من الفلاحين أمثاله يشرب شيئاً من هذا النوع ..

وقال شين بهدوء : ان البعض منا يشربون .. والآن هيا اذهب من هنا ، وأخبر فلتشر أن يرسل لي رجلاً لا ولداً ..

وكان في صوته رنة من التهديد ذرعت في قلوب الموجودين شيئاً من الرعشة ، فساد الصمت ، وتقطعت الأنفاس ..

والتفت عندئذ شين إلى عامل البار وطلب منه زجاجة من الشراب البارد مما يستعمل للاطفال ، فاعطاه العامل ما طلبه ، فحمله في يده ومشى نحو (غريس) فتراجع هـذا من طريقه ، فمضى شين في شأنه حتى وصل إلى الباب ، ثم إلى الشارع .

ولم يتحرك (غريس) من مكانه ، ولا تحرك أحد ممن كان في الحانة ، وسمعت صوت شخص يتنفس الصعداء على مقربة مني .

فتطلعت فشاهدت المستر كرافتون صاحب المحل قد أقبل من مكتبه ، وسمعت عندئذ (غريس) يقول :

ـ أرأيتم ما فعله.. إنه مرّ من أمامي دون أن يقول لي شيئاً.

فلما لم يجبه أحد أسرع إلى جواده فركبه ومضى في سبيله..

وعندئذ شاهدني المستر كرافتون فصاح يقول :

ـ ما الذي تفعله .. أسرع بالذهاب إلى صديقك ، فإنه أخذ الزجاجة لك .. ألم تفطن إلى ذلك ..؟

فأسرعت إلى الشارع فوجدت شين بانتظاري ، وهو لايزال يحمل الزجاجة المبردة في يده ، فأخذتها منه أرشفها على مهل ، وقد ضاق صدري مما رأيته وشاهدته ..

٤

انتقام شين

لم يتحدث شين بشيء في أثناء الطريق ، وان كنت قد لحظت ان وجهه قد علته ابتسامة رهيبة ، أدركت معها أن الأمور في الوادي لن تسير على ما يرام في المستقبل ..

وما كدنا نصل الى المنزل ، حتى ظهر والدي أمامنا ، وبدلاً من أن يسأل شين عن الأخبار سألني قائلاً :

ـ هل عثرت على أحد من رعاة البقر أبطالك ..؟

فقال شين : لقد تبعنا أحد رجـــال فلتشر ليقدم لنـا احتراماته ..

فقلت بشيء من الزهو :

ـ لقد تبعنا اثنان لا واحد ..

فدهش شين وقال : اثنان .. وما الذي فعله الثاني ؟

ولم يظهر على والدي أنه دُهش للخبر ، ولعله كان يتوقعه أو ينتظر شيئاً على غراره .. فقلت :

ـ وقف أمام النافذة ، ينظر اليك ثم ما عتم أن ارتدّ سريعاً

وغادر المكان ..

ـ أعاد الى المزرعة ..؟

فقلت : كلا .. وإنما غادر المكان الى بلد آخر .. وعلى كل حال فهذا الذي سمعته منه ..

ونظر أبي وشين الواحد الى الآخر ، ثم سأله والدي :

ـ وما الذي فعلته بالآخر ؟

ـ لا شيء .. تعرض بكلمة او كلمتين للفلاحين ، ثم تركته ومضيت في سبيلي ..

وبهت والدي لجوابه ، ثم سألني :

ـ من هو ؟

ـ انه غريس ..

وضحك والدي وقال :

ـ ان فلتشر بعيد النظر كما يظهر حين ارسل رجلين بدلاً من واحد .. ولا بد أن غريس قد دهش لهرب رفيقه ، ثم لتركك إياه وشأنه ، مع محاولته التعرض لك ، ومن المؤسف أن الآخر قد غادر الساحة ..

وقال شين : من المؤسف حقاً ..

وقال والدي : الذي أخشاه ان يظن غريس انك هربت من وجهه .. فإنه ضيق الأفق ..

وضحك شين وهو يقول :

ـ وهذا ما أخشاه أيضاً ..

وكان ما توقعه ابي أمراً واقعاً ، فقد ذهب غريس يتحدث

الى من يريد ان يسمع كلامه ، بأن شين قد هرب من وجهه ، وأبى أن يقف معه في الميزان ..

وقرر فلتشر ورئيس عماله مورغان وأنصاره أن يفيدوا من هذه الاشاعات فروجوا لها بين الناس ، ليستقر في الأذهان أن هؤلاء المزارعين الفلاحين، لا يقوون على المقاومة، ولا يستطيعون الاحتفاظ بأرضهم طويلاً ..

وأخذ عمال فلتشر في هذه الأثناء يرودون حدودنا، ويوجهون الينا قوارص الكلام ، لنبدأهم بالخصومة فيرتدون علينا وهم أكثر عدداً .. وأقوى سلاحاً ..

وضاق صدر والدي من كثرة ما وجه اليه من الكلام والتعريض وضاق صدر المزارعين المجاورين ، لما سمعوا قصة غريس ، فظنوا أنها الحقيقة ، وأخذوا يعتقدون أن شين ليس بالرجل الذي يعتمد عليه ، وإنه لن يكون أحسن من مورلي ، الذي ضربه عمال فلتشر ففر هارباً لا يلوي على شيء ..

ولو عرفوا شين كما نعرفه ، لتريثوا في كثير من أحكامهم، ولم يتسرعوا في أقوالهم ..

وزاد الطين بلة ، أن كثيرين من سكان القرية لما سمعوا بالخبر، أخذوا يميلون الى صاحب القوة ، بعد ان وقفوا موقف المتفرج الحايد ينتظرون النتائج ، حتى اذا كانت لصالح فلتشر انضموا اليه ، وان كانت لصالحنا كانوا معنا ..

●

ولم يكن شين ليأبه لهذا ، لولا انه شعر كما بدا لي في المدة

الأخيرة ، ان هذه الحادثة وهذه الشوائع قد أثرتا على مركز أبي بين المزارعين الذين كانوا يعتبرونه زعيماً لهم .. كما ضاق صدره لما كان يسمعه بين وقت وآخر من جماعة فلتشر حين كانوا يسبون مواشينا بالخنازير ، ويطلبون منا ان لا نسمح لأحدهـا بالتسلل عبر الحدود ..

وفي ذات يوم وبينما كان المزارعون مجتمعين في منزلنا ، ضاق صدرهم لما شاهدوا والدي لا يلقي بالاً لفلتشر وجماعته ، فقال له المستر هنري :

ـ ان الأمر لا يحتمل المزاح ابداً ، خصوصاً منك انت ، حق لقد بدأت أشك في حسن حكمك على الأمور ..

« ان احداً منا لم يعد يطيق ان يرفع رأسه بعد الحادثـة الأخيرة .. منذ ساعة كنت في صالة كرافتون ، فسمعت غريس يقول : ان شين لا بد ان يكون عطشاناً ، لأنه يخشى ان يعود الى الصالون ليشرب زجاجة من الكازوز بعد الحادث الأخير »

وتتابعت الضربات على ابي .. فهذا يتكلم ، وذاك ينتقد ، وثالث يؤيد ، واخيراً قال المستر رايت :

ـ انك لا تستطيع تهوين الأمر كما تحاول ان تفعل ، فإن صديقك هو المسؤول ، ومهما حاولت الاعتذار له فلن توفق ، لقد حاول غريس ان يثيره ويستفزه للمعركة ، فلم يقبل ، وغـادر المكان كأنه من الهاربين ..

وبينما كان القوم في شأنهم هذا سمعنا وقـع حوافر جواد ، فخرج والدي ليري ما الخبر ، فشاهد شين على جواده في طريقه

الى سوق القريه ..

وصاح والدي يريد ان يردّه ولكنه كان مسرعاً فلم يسمع صوته ، فضرب عندئذ ابي كفاً بكف وراح يقول :

ـ لم يبق علينا إلا ان ننتظر ما يكون ..

وساد الصمت ، وانطوى كل واحد من الموجودين على نفسه ، فلم يعد ينظر الى رفيقه ، ولا يتحدث الى احد ..

وتحركت امي من كرسيها ، وكانت تجلس في الغرفة المجاورة فصنعت ركوة كبيرة من القهوة قدمتها الى ضيوفنا ، فأخـذوا يشربون ويدخنون ..

وبعد نصف ساعة او اقل قليلاً ، سمعنا وقع حوافر جواد ، فخرجنا نشاهد من القادم ، فإذا به شين ، فلما شاهدنا صاح يقول :

ـ لقد دفنت الخنازير الى غير رجعة ..

ثم التفت الى والدي وقال :

ـ ان غريس لن يزعج احداً بعد اليوم .. والى وقت طويل على ما اعتقد ..

وانفتل عائداً الى الاسطبل للعناية بجواده ، على ما اعتقد ، دون ان ينطق بكلمة اخرى ..

وبعد ثوان قليلة سمعنا وقع حوافر جواد ثان ، فرفعنـا رؤوسنا فشاهدنا المستر هول يسرع نحونا ، فلما قاربنا صاح يقول :

ـ اين شين ..؟

فقال ابي : انه في المخزن ..

ـ هل اخبركم بما حدث ..؟

ـ أبداً ..كل ما عرفناه منه أنه دفن الخنازير الى غير رجعة.

وارتمى عندئذ المستر هول الى كرسي قريب ، وبـــدا لنا مضطرباً يرتجف من هول المفاجآت التي شاهدها ، ثم راح يقول:

ـ اني لم اشاهد في حياتي مثل ما رأيت اليوم ..

●

وقصّ علينا المستر هول القصة فقال :

ـ لقد كنت في مخزن كرافتون لشراء بعض الحاجات ، ولم اذهب الى الصالون ، حيث كان غريس ومارلين وبعض رجـال فلتشر يلعبون البوكر ..

« وفجأة استشعرت ان الهدوء يسود المكان كله ، فأسرعت لأرى ما الخبر ، فشاهدت شين يدخل الى الصالون بخطى ثابتة ، وابتسامة عريضة ، ولكنها مخيفة بالتأكيد ..

« وعندئذ لاذ كل من الموجودين بالصمت ، حتى لقد أخذت أسمع دقات قلوبهم .. حتى غريس ومارلـين سكتا وتوقفا عن اللعب ، مع ان الفرصة كانت سانحة للهجوم على شين وضربه .. إذا كان هذا ما يريدانه ويستعدان له .

« ولعل سبب سكوت الجميع ، ان نظرات شين كانت تبعث على الذعر والخوف، فما شاهدت في حياتي وجهاً قد ارتسمت عليه امارات المغامرة والمرح والقوة في وقت واحد ..

« وفجأة سمعته يصيح في خادم البار قائلاً :

ـ زجاجتان من الكازوز ..

« ثم استند على البار ، وأجال نظره فـــيما حوله ، وكانت نظراته هادئة ، حتى ليحسب الناظر اليه ، انه جـــاء ليشرب قدحاً ثم يمضي في سبيله ..

« واحضر الخادم الزجاجتين ، ووضعهما امامه ، والجميـــع ينظرون اليه ، ولا يحركون ساكناً ..فتناول الزجاجتين وحملهما بيده الى حيث كان غريس ، فوضع واحدة امامه وهو يقول :

ـ لقد اضفتني قبل يومين قدحاً من الويسكي ، وقد جئت اليوم لوفاء ديني ، مقدماً لك قدحاً من الكازوز مكانه ..

« وظن الحضور ان الامر سينتهي عند هذا الحد ، وان شين انما يريد ما يعنى ، وانه ليس في سبيل إثارة خلاف او خصومة مع هذين الخصمين .

« ولعل غريس كان يظن مثل ذلك ، فمدّ يده الى الزجاجة ورمى بها في وجه شين ..

« وكانت هذه غلطة منه ، دفع ثمنها غالياً .. فقد حاد شين عن الزجاجة بمثل لمح البصر ، ثم مدّ يده فاقتلع غريس من كرسيه ورفعه عن الأرض ـ بينما كانت الزجاجة لا تزال في الهواء ..

« وفغر الحضور افواههم من الدهشة ، فما شاهد احـــد في حياته مثل هذه السرعة ، ولا رأى مثل هذه القوة ..

بينما كان غريس لا يزال معلقـاً في الهواء ، كانت قبضة شين اليسرى تستقر على فكه فتحطمه ، وتحـدث صوتاً رهيباً مخيفاً . وسقط غريس الآن على الارض وهو يصيـــح من الالم والحقد والغضب ، وهجم على خصمه كالذئب الضاري ، ولكنه

قبل ان يصل اليه ، كانت قبضة شين اليمنى قد بدأت ترتفع ثم تهوى على وجهه ، وبطنه وصدره ، وكان هذا كله يحدث بسرعة بحيث لم يكن باستطاعة الموجودين تمييز ما يقع ، او مشاهدة القبضة التي كانت تتحرك بسرعة البرق الخاطف ..

«وتوقف شين لما شاهد خصمه متلاشياً يسقط الى الارض ، وقد كان بإمكانه القضاء عليه بسهولة ، بعد ان اصبح تحت رحمته ..

«ولكن غريس بدلاً من ان يقبل الامر الواقع ، اعاد الهجوم على خصمه .. وتركه شين يتقدم نحوه ، فلما قاربه ، اخذت قبضته اليمنى تارة ، واليسرى تارة اخرى تسقطان على وجهه وفكه ، وبطنه وصدره ، مثل الرصاص ، فتحطم فكه ، وتمزقت شفتاه ، وبدأ الدم ينزف من غير مكان في وجهه بحيث اصبح مهشماً ... وكأن حواداً قوياً قد داسه باقدامه ، ومزقه بحوافره ...

«ولكنه لم يقع ومدّ يده يحاول الوصول الى خصمه ، فكان في ذلك نهايته .. ولا اريد طبعاً موته ، ولكن نهايته كرجل يستطيع المقاومة او الوقوف بعد ذلك .. فقد امسك عندئذ شين بذراعه ، واخذ يلويه .. وراح غريس يحاول الافلات من قبضته ، وتحرير ذراعه فلم يوفق ...

«ومسح الموجودون العرق الذي اخذ يتصبب من وجوههم ، فقد ادركوا ان هذه هي النهاية .. وكانت هي النهاية بالتأكيد ..

« لأن شين ما عتم بعدها ان راح يلوي ذراع خصمه

حتى سمعنا صوت العظام تتكسر الواحد بعد الآخر ، وعندئذ سقط غريس الى الارض ، وقد فقد صوابه ..

«وعرتنا رعدة لما شاهدنا هذا المشهد ، الذي لم نشاهد مثله في حياتنا ، ذلك ان الامر الغريب فيه ، هو ان غريس لم يوفق من اول المعركة الى آخرها من الوصول الى خصمه ، او اصابته بلكمة واحدة ..

« وما كاد شين ينتهي من غريس حتى ادار وجهه نحو الموجودين .. ثم استقر على وجه مارلين رفيق غريس ، الذي اخذ العرق يتصبب من وجهه ، ثم قال يخاطبه بصوت رقيق هادىء :

— أعندك ما تقوله عن الخنازير والكازوز ..؟

ولكن مارلين لم يتحرك من مكانه ، فقد بلغ منه الخوف كل مبلغ كما بدا لي ، وقد ادرك بالتأكيد ان عيون الجميع كانت تحدق به ، وانهم ادركوا ان الخوف قد ملكه ، ولكن هذا لم يثره في حال من الاحوال .. ولم يحركه من مكانه على الاطلاق ..

وفجأة رأينا شين ينظر الى غريس ، ملقى أمامه على الارض ، فيأخذه بيده ثم يضعه على طاولة قريبة ، ثم مضى نحو البار فتناول احدى المناشف ، واخذ يمسح له وجهه ، ويفرك له يديه ، دون ان يحرك احد من الموجودين ساكناً ، أو يقول كلمة ، او يأتي بحركة ..

ثم انثنى نحو مارلين وقال يخاطبه :

— الافضل ان تأخذه الى المزرعة ، فان ذراعه بحاجة الى

التجبير ، كما انه بحاجة الى الراحة اياماً كثيرة ..

«والواقع ان الحادثة من اولها الى اخرها لم تستغرق خمس دقائق ، وما اظن شين احتاج الى اكثر من ثلاثين ثانية ليطرح خصمه ارضاً ، وينتهي من تصفية امره ..

«هذه هي القصة كما شاهدتها بعيني رأسي ... والحق أقول لكم ان شين هذا ، هو اخطر رجل رأيته في حياتي .. ولا بد ان الشخص الذي كان مع غريس ليومين خليا ، ثم غادر المدينة هارباً لما شاهد وجهه ، وقبل ان يكلمه ؛ يعرفه كل المعرفة، او انه سمع باخباره ، وهذا يدل على ان صاحبنا هذا رجل خطر جداً ، واحمد الله على انه يعمل معنا لا مع فلتشر..»

وعندئذ نظر ابي الى الموجودين وقال باسماً :

– وكذلك ترون اني لم اخطيء في اختياره ولا في تقديره على حقيقته ..

وقبل ان ينطق احد من الحضور بكلمة كانت امي تقول :

– ولكننا قد اخطأنا بالتأكيد في اقحامه في شؤوننا ، فما كان من الحق ان يصاب باذى في سبيلنا ..

●

تبدّل شين شخصاً جديداً بعد الحادثة ، فقد كان في الماضي بادي الهدوء ، يلوذ بالصمت ، لايرسل نفسه على سجيتها إلا في بعض الحالات، واما الآن فقد اصبح ظاهر القلق ، بادي الحركة ملتهب الاعصاب ..

واخذ على الاثر يطوف اطراف المزرعة وحده ، مرة راجلاً، وفي اكثر الأحايين راكباً على جواده ، يدور بوجهه في كل الاطراف والجهات ..

وفي اليوم التالي اجتمعت اليه وحده فسألته :

– ألا تخبرني كيف تمكنت من غريس بمثل هذه السرعة ، وكيف صرعته من الضربة الاولى ..؟

فتمهل قبل أن يجيبني ، حتى ظننت انه لن يفعل ثم قال :

– ان المرء لا يتعلم مثل هذه الامور ارتجالاً ، وإنما مع الأيام وعلى طول المران ، ولتعلم اني حاولت أن أؤدبه لا أن اكسر يده ، وأحطم وجهه ، ولكنه لم يقنع، وعاد يحاول الكرّ عليّ، فكان ما كان ... ولو انه اكتفى بالتسليم من الصدمة الاولى لانتهى الأمر وتركته وشأنه ، فليس من شأني تأديب هؤلاء الصغار الذين لا قيمة لهم ولا شأن .

وسكت لا اعلم ما أقول ، فقد بدا لي من حديثه انه يحاول تبرير موقفه ، وانه ليس من أهل الشر ، وانه فعل ما فعل دفاعاً عن نفسه ، بعد أن حاول جهده ، انذار خصمه ، لو أن خصمه اتعظ من الدورة الاولى ، لما كان هناك دورة ثانية رمته إلى الأرض ، وصرعته وآذته ، وجعلته يلتزم فراشه اسابيع عديدة ..

ولكن ترى لماذا يحاول تبرير موقفه أمامي ؟

ألعله يأسف لما صارت إليه حالة غريس ، فندم على انه أدّبه هذا التأديب القاسي ؟

هذا ما لم اصل الى معرفته ، لأنه ما لبث أن تركني وشأني ومضى في سبيله يرود حول المزرعة واطرافها ، كأنه ينتظر أحداً أو يرتقب حادثاً ...

★★★

يبدو أن امي فطنت إلى تبدل ضيفنا أيضاً، فقد سمعتها بعد عودتي من المدرسة ، تنادي شين وتقول له :

– أريد أن اتحدث إليك ..

فابتسم في وجهها وقال : تفضلي ..

فقالت : لقد شاهدتك ضيق الصدر في اليومين الأخيرين ، ولعل سبب هذا ما وقع لك مع جماعة فلتشر، وما يمكن أن يقع في المستقبل ...

فقال : إنك لبعيدة النظر ..

– ولا بد انك تفكر بأمور اخرى ايضاً ..؟

– هذا صحيح .. فإن أمامي عدداً من الأمور التي يجب عليّ ان اصفيها قبل سفري من اميركا ..

فقالت : هذا ما كنت اتوقعه .. ولكني أرجوك أن لا تتركنا في الوقت الحاضر ..

وبدا صوتها رقيقاً مؤثراً .. ثم تابعت تقول :

– اني ارجوك أن لا تذهب .. فإن جو بحاجة إليك في الوقت الحاضر ، أكثر من أي وقت آخر ..

فقال شين بهدوء : وأنت ؟

وترددت امي ملياً ثم قالت :

– وانا ايضاً بالتأكيد ..

ولاذ شين بالصمت دقائق معدودات ثم قال :

– أتعلمين خطر ما تطلبين . ؟

– نعم .. وأعلم انك الشخص الذي يقف لمثله ، ولا أكتمك اني أفضل لمصلحتك أن تغادر هذا المكان ، ولكني لا استطيع أن انسى زوجي .. وإني لمعتمدة عليك للوقوف إلى جانبه حتى الساعة الأخيرة ، لأنه لا يستطيع الاحتفاظ بأرضه هذه وحده. ولن يستطيع مقاومة فلتشر ورجاله بمفرده ...

وسكتت امي .. وسكت شين .. وكنت أراهما من مكاني دون أن يراني .. حتى اني كنت اسمع صوت انفاس امي وهي تتصاعد مضطربة قلقة ..

ثم تابعت أمي حديثها تقول :

– ولتعلم أن جو سيموت إذا اضطر إلى مغادرة هذه الأرض التي هي أمله في الحياة والمستقبل .. بيديه أقام هذا المنزل المتواضع ، وبجهوده اصبحت هذه المزرعة كما ترى ، من عرق جبينه ، اصلح ارضها ، رغرس أشجارها ، واجرى الماء فيها.. انها كل شيء عنده ، وعندي أيضاً ..

وظهرت الابتسامة على وجه شين .. ابتسامة عريضة تعيد الطمأنينة إلى نفس كل من يشاهدها ، وراح يقول :

– يجب أن يكون «جو» فخوراً بزوجة مثلك .. يكفي ما سمعته الآن .. فلا تعودي إلى هذا الكلام في المستقبل ، ولكني أعدك بأن (جو) لن يخسر هذه المزرعة أبداً ..

وشاهدت امي ترتمي على مقعد أمامها، وقد لمعت الابتسامة في عينيها ، ثم ما عتمت أن تمالكت نفسها وقالت :

– ولكن فلتشر رجل ماكر قوي .. فهل انت واثق من النتيجة ؟

فقال شين وهو يتحفز للذهاب نحو الاسطبل :

– لقد وعدتك أن لا يخسر زوجك مزرعته ، وما تعودت إلا الوفاء بالوعد الذي أقطعه ، فلا تخافي ، ولا تجزعي ..

واطمأنت والدتي .. واطمأنيت أنا بدوري ، فقد كان في اللهجة التي نطق بها كلماته هذه ، ما يدعو اضعف النـــاس إلى الايمان والثقة ..

●

تبدل الموقف قليلاً بعد الحادثة .. فقد أخذ جماعة فلتشر يعملون بعيداً عن حدودنا ، ولم يعودوا يرموننا بقوارص الكلام وعبارات التهديد والوعيد .. وإن أمكن تفسير هذا بانهماكهم في بناء سياج كبير من الاسلاك لحفظ المواشي التي قرر فلتشر جلبها من (داكوتا) ..

وأما والدي فقد أخذ يحمل سلاحه معه سواء أكان يعمل في المزرعة أم كان في طريقه إلى المخزن العام في المدينة لشراء بعض الحاجات ، أو للذهاب إلى دار البريد ليسأل عن رسائله وبريده..

ولحظت ايضاً انه أخذ لا يفارق شين في روحاته وغدواته أبداً ، ولم يعترض ضيفنا على ذلك ، ولا اهتم به ، وفي ذات يوم ، وكان يوم عطلة في المدرسة ذهبت مع والدي وشين إلى المدينة ،

فلما وصلنا الى مخزن المستر كرافتون أطلّ والدي من نـــافذة البار ، فلمـــا لم يشاهد أحداً من جماعة فلتشر ، سرّى عنه ، وراح يختار حـــاجاته ، بينما ذهب شين إلى البـــار ليشرب قدحاً ..

وأسرعت خلفه ، لعلي أحصل على زجاجة من المبردات ، فرأيته عند دخوله يجيل النظر في أطراف الصالون لحـــة قصيرة من الزمن ، ثم يذهب نحو البار ..

ووقفت مكاني على الباب ، لا اتقدم الى داخل الحانة ، لأن والدي كان يكره أن يراني فيها ، خصوصاً في مثل هذا العمر..

فلما قاربه أخذ يتحدث مع خادم البار ملياً ، بينما ابتعـــد الجالسون بقربه عنه ، وأخذوا يخالسونه النظر ، ويتحدثون فيما بينهم همساً ..

وتناول شين قدحه وأخذ يرتشفه على دفعات ، وقـــد أسند ذراعه على البار محدقاً في فضاء الغرفة تارة ، وفي الدخان الذي كان يتصاعد من سيغارته تارة أخرى ..

وفجأة لمحت وجه مارلين رفيق غريس يطـــل من النافذة القريبة ، كما تأكدت في الوقت نفسه أن شين قد شاهده أيضاً ، ولكنه لم يكن قد شاهد رفاقه الآخرين الذين كانوا خلفه ..

وعندئذ تسمرت في مـــكاني ، وتولاني الخوف العظيم ، فقد أدركت أن جمـــاعة فلتشر قد اعتزموا هذه المرة التغلب على خصمهم بقوة العدد ، والهجوم الساحق ..

ثم تمالكت نفسي وأسرعت الى حيث كان شين واقفاً وقلت له:

– إن هناك عدداً منهم .. فاحذر ..

وقبل أن يتمكن شين من الجواب، كان خصومه قد اقتحموا الصالون ، ومورغان رئيس عمال فلتشر على رأسهم ..

عزفت منهم مارلين ، وكورلي ، وكان صديقاً لغريس ، وجماعة آخرين لا تحضرني أسماؤهم ، فأشرت عندئذ الى شين ليغادر المكان من الباب الذي كان خلف البار، فابتسم ضاحكاً، وهتف يقول :

– ما هذا .. أتدعوني الى الهرب أيضاً ..؟

وتولتني رعشة ما عرفت مثلها في حياتي ، لمّا شاهدته يقف باسماً ضاحكاً هادئاً ، أمام هذا العدد الكبير من الخصوم ، ثم سمعته يقول لي :

– غادر هذا المكان حالاً يا بوب .. فإن الجو فيه لن يلائمك بعد قليل ..

فابتعدت عنه قليلاً وانزويت في ركن من أركان الصالون ، لأرى ما يكون ..

كان مورغان على رأسهم كما قلت، والأربعة الآخرون خلفه، وكان زبائن البار في هذه الأثناء ، قد أسرعوا الى أطراف الصالون ، بعيداً عن مكان المعركة ، بحيث أصبح وسط الصالة خالياً إلا من المقاعد والكراسي ..

وفجأة سمعت صوت المستر كرافتون ، وكان قد أحس

بالخطر فأسرع من مكتبه الخاص خلف البار يصيح بصوت عال:

– إني لا أسمح بوقوع مشاكل في حانتي ، ومن يفعل يكون مسؤولاً عن الخسارة ..

وهزّ مورغان رأسه ، دون أن يرفع نظره عن شين ، واقترب منه قليلاً حتى أصبح لا يبعد عنه أكثر من متر واحد ، ثم صاح يخاطبه :

– إن الرجل الذي يتعرض لأحد عمالي لن يذهب بدون قصاص أبداً .. ولهذا فقد قررنا طردك من الوادي يا شين ، بعد تأديبك طبعاً .. ولن نسمح لك بالعودة اليه بعد الآن ..

وقال شين بصوت هادىء : أتظن ذلك ..؟

ولم يعد بالإمكان أن تشاهد حركاته ، وأن تضبطها بالتأكيد فقد بدأ يتحرك وهو يتكلم ، فتناول قدح الشراب الذي كان على البار ، وقذف به في وجه مورغان ..

فلما مدّ مورغان يده ليصل اليه ، كان شين قد أمسك بها فلواها ، وهو يتراجع الى الوراء ، وقبل أن يعرف خصمه ما يراد منه ، كانت قبضة شين الثانية قد سقطت على وجهه ، ثم أتبعها برفسة من قدمه اليمنى ، فاندفع مورغان الى الخلف ، وسقط على الكراسي والطاولات التي كانت قريبة منه ..

وعندئذ هجم الأربعة الباقون دفعة واحدة عليه فتناول كرسياً قريباً وقذفه في وجوههم ، فتفرقوا من وجهه ، ولكنه تمكن من أن يقبض على ذيل أحدهم ، وكان من العمال الجدد كما يظهر ، لأني لم أعرفه ، ولم أشاهده قبل اليوم ، ثم رفسه في

وركه بقدمه ، فصاح من الألم ، وسقط الى الأرض ، ثم رأيته يزحف نحو الباب .. متلوياً من الألم لا يلوي على شيء ..

وكان مورغان في هذه الأثناء قد وقف على قدميه ، وأخذ ينظر الى ما حوله ، وكان الثلاثة الآخرون يهاجمون شين دفعة واحدة ، فيردهم عن نفسه بيديه ، وقدميه ، وهو هادىء باسم ، يتحرك بسرعة البرق ، ويقفز من مكان الى آخر كالهر الشرس ، وكان يحدث أحياناً أن يصيبه أحد الثلاثة بضربة أو صدمة ، ولكن هذا لم يكن مما يؤثر عليه ، بل إنه لم يكن ليؤذيه بالتأكيد ..

وفجأة لحظت أنه يحاول الالتحام مع شخص واحد ليقضي عليه ويخرجه من المعركة ، وكان في هذه الأثناء قد تعلق بشخص منهم ، وكان هذا الشخص (كورلي) ، فلما حاول الإمساك بأحد يديه ليمكن رفيقيه منه ، سقطت قبضة شين على فكه ، فأحدث سقوطها صوتاً مرعباً ، فصاح كورلي من الألم وترك ساعد خصمه وتراجع مذهولاً غائم الوجه والعينين ..

وأدرك الحضور على الأثر ، أن المعتدين قد تملكهم التعب ، وأن أحداً منهم لم يكن يرغب في الوصول الى شين وحده ، بعد أن شاهدوا قساوة ضرباته ، وسداد قبضته ، وسرعة حركاته ، وعندئذ عمدوا الى خطة جديدة فقد هجم عليه مارلين من يمينه ليلهيه ، بينما قام الثاني بحركة غريبة ، إذ قفز عالياً عن الأرض ، فلما أصبحت قدماه بمحاذاة شين رفسه على رأسه بإحداهما ، فحاد هذا عن طريقه فلم تصبه الصدمة إلا في ساعده ..

وقبل أن يعود الرجل الى الأرض ، كان شين قد أمسك بقدميه ، وضرب رأسه بالأرض ، فصاح هذا من الألم .. وظل مكانه لا يعي ولا يتحرك ..

واغتنم كورلي هذه الفرصة ، التي جعلت شين ينصرف كل الانصراف الى أحد الخصوم ، فتمكن هو ورفيق آخر منه ، وقبض كل واحد منهما على إحدى يديه ..

وصاح مورغان برفيقيه : أمسكا به ..

ولكن شين رفس كورلي برجله رفسة شديدة ، فصاح هذا من الألم ، وتخلى عنه ، وكان مورغان قد اختار هذه الفرصة الدنيئة ، وبينما كان اثنان من رجاله قد أمسكا بخصمه ليضربه بزجاجة على رأسه ، ويجرحه في وجهه ، ولكنه لما حاول الثانية لم يوفق ..

ذلك أن شين كان قد تمكن من تحرير يده من خصمه الآخر وارتد على مورغان ، في الوقت الذي دخل أبي في المعركة ..

وكان أبي كبير الجسم ، قوي العضل ، هجم على مورغان من خلفه هجوم الضواري ، ودفعه بقوة عظيمة إلى الأرض فوقع يتخبط بين الكراسي ، ثم أمسك بكورلي ، وقبض على عنقه بكلتا يديه ، فراح هذا يصيح من الألم ، ثم رماه بعيداً عنه فسقط بين الكراسي والطاولات ، وظل مكانه لا يتحرك ولا يحاول أن يرفع رأسه ..

وفي هذه اللحظة سمعنا صيحة غريبة ، فالتفت الجميع نحو شين ، فإذا بقبضتيه تسقطان على وجه مارلين المرة بعد الأخرى فيسقط للأرض متلاشياً وهو يصيح من الألم، ثم يقف على قدميه ويهرب مسرعاً الى الخارج ، فرفعت عيني لأنظر الى شين فإذا به يمسح وجهه بمنديله ، وهو يقول لخادم البار :

– يجب أن ترسل حساب الخسائر للمستر فلتشر فهذه الرواية من تأليفه ..

ورنت ضحكته في الصالون ، فنفذت الى قلوب الحاضرين الذين أخذوا ينظرون الى الشخص الذي تمكن من تحطيم ثلاثة من خصومه الخمسة ، واحداً بعد الآخر، مع أنهم كانوا يهاجمونه جماعة واحدة وقلباً واحداً ..

وكان والدي بعد أن انتهى من قذف كورلي الى الحائط ، حيث استقر تحت المقاعد والكراسي ، وبعد أن شاهد مارلين يهرب من قبضة شين وهو يصيح من الألم والفزع، قد أخذ ينظر الى وجه مورغان الذي تمالك نفسه فوقف على قدميه لا يدري ما يفعل بعد الصدمة العنيفة التي أصابته فهدته ، وقضت على سمعته ..

وعندئذ تقدم والدي نحوه ، فصاح به شين :

– اتركه يا جو .. فإنه حصتي .. والأفضل أن تذهب بهما من هذا المكان ..

وأشار الى حيث كنت ، فالتفت متعجباً ، فشاهدت أمي تقف غير بعيد مني ، وقد تبعت والدي الى الصالون ، وشاهدت

كل ما وقع وحدث ..

وصاح أبي يقول : إن مورغـــان من وزني .. ولكني لن أخالفك أبداً ..

ثم التفت إلى الموجودين فقال لهم :

– إذا شاهدت أحداً يحاول مساعدة مورغان كسرت عنقه.

ثم سار إلى حيث كانت أمي وقال لها :

– الأفضل أن تذهبي إلى العربة ، فإن شين سيؤدب مورغان وليس هذا بالمنظر الذي يحسن أن تشاهده السيدات ..

وهتفت أمي دون أن تتحرك من مكانها :

– إن شين منا ، وسأبقى للنهاية ..

وكذلك بقينا نحن الثلاثة نشاهد مصير مورغان رئيس عمال فلتشر ، ونتمتع بالتأديب الذي قرر شين إنزاله به ..

●

مشى شين نحو خصمه .. هادئاً باسماً كأنه يمشي في حديقته.

وبدا لنا أنه نسينا جميعاً ، بل ونسي الممددين من خصومه على الأرض ، ونسي المستر كرافتون صاحب الصالة الذي كان ينظر بدهشة إلى ما يحدث في صالته ، والزبائن الذين وقفوا على جدران الصالون الأربعة بعيداً عن مكان المعركة .. ينظرون ولا يقولون شيئاً ..

لقد كان مورغان أكبر جسماً ، وأطول قامة من خصمه ، وكان مشهوراً بقسوته وقوة جسمه في الوادي عندنا ، وكان في

هذه اللحظة في حالة يائسة ، فعلى مصير هـذه المعركة يتوقف مصيره وكرامته ، ومن يدري وحياته أيضاً ..

ولهذا هجم على خصمه لعله يفيد من ثقل وزنه عليه . فحاد شين عن طريقه بخفة البرق ، وبينما كان مورغان لا يزال في اندفاعه نحو المكان الذي كان فيه شين قبلاً ، كانت قبضة خصمه قد أخذته في فكه ، وكانت الأخرى قد سقطت على معدته ، فتوقف مورغان عن المضي في هجومه ، بسبب مـا أصابه من الألم ، وما تولاه من الدهشة ..

ولكنه كان يعود للهجوم كرة أخرى ، وفي كل مرة كان شين يختفي من طريقه ، وتسقط ضرباته على خصمه ، هنـا وهناك ، حتى أنهكه ، وأخـذ صوت تنفس مورغان يسمع خارج الشارع ..

فلما كان الهجوم الرابع ، لم يجد شين من طريق خصمه ، بل ثبت له ، وكان هذا لما وصل إليه ، ماداً يديه ، تقاصر شين أمامه ، ثم ارتفعت قبضته إلى فـك خصمه ، فأحدثت دوياً مريعاً، وتراجع مورغان إلى الوراء، والدم ينزف من فمه ووجهه.

وفجأة تنامى مورغان كل تقاليد المصارعة ، فتناول كرسياً وهجم به على خصمه ، فحاد شين من طريقه ، وكان مورغان قد فطن إلى حيلته هذه فـلم يندفع في هجومه اندفاعه في المرات الأولى ، وتوقف في مكانه في الوقت الذي انحرف فيـه شين من وجهه ، ورفع كرسيه ليضرب بها خصمه على رأسه ..

وعندئذ حدث المشهد العجيب ، فقد انحنى شين حتى قارب

الأرض فاتقى شر الكرسي .. فاندفع عندئذ مورغان ، وقـد ظن أنه قد تمكن منه ، بل وأنه أصبح تحت رحمته ..

وهنا حدثت المعجزة ، فمـا كاد مورغان يصل الى خصمه الذي كان قـد جلس على الأرض ، حتى اندفعت قدما شين نحو بطن خصمه ، بقوة مخيفة ، فتراجع وقد امتقع لونه ، واسودت الدنيا في عينيه ، وسقط بحذاء البار ، ولولا وجود البـار لوقع على الأرض ..

وقفز عندئذ شين من مكانـه بمثل لمح البصر ، منقضاً على خصمه ، وأخذت قبضته اليمنى تسقط على فكه ووجهه ، بينما اندفعت قبضته اليسرى إلى عنقه ، فأمسكت به وعصرته، حتى خرج الزبد من فمه ، وظهر الخوف على وجهه ، وأخذ يصيح من الألم ..

وفي هذه اللحظة التي وقف لها شعر الموجودين ملماً وخوفاً، سقطت قبضة شين اليمنى على فـك مورغان ، وكانت من القوة بحيث تحطمت معها أسنانه ، وغـاب عن صوابه وسقط إلى الأرض في مكانه لا يعي ولا يتحرك ..

وتطلعت كل العيون نحو شين ، لتعرف ما يكون من امره بعد انتهاء المعركة، فإذا به يذهب إلى البار فيأخذ قدحاً فيجرعه ثم يمد يده إلى منديـله فيديره على وجهه ، ثم يمشي نحو والدي ويقول :

— لقد انتهينا يا جو .. فهيا بنا ..

وامتدت يد والدي إلى صدره فطوقته ، ثم سمعت أبي يرفـع

رأسه ويقول مخاطباً المستر كرافتون :

– أرجو أن تقيد الخسائر التي أصيب بها المحل على حسابي .

ولكن المستر كرافتون المشهور بدقة حساباته وطمعه صاح يقول :

– سأقدم حسابي لفلتشر ،وأعتقد أنه لن يتأخر عن الدفع .

ولكن أبي عاد يقول :

– أبداً .. إنني لن أسمح لفلتشر بأن يدفع ثمن هذه الرواية التي مثلناها ، والتي كان فيها رجاله من الخاسرين ..

٥

التهديد

لم نتحدث كثيراً في أثناء الطريق ، فلما احتوانا المنزل ،كان همّ أمي أن تمسح الجراح الصغيرة التي أصيب بها وجه شين في أثناء المعركة ، ولم تكن بالتأكيد شيئاً مذكوراً ..

وحاول شين أكثر من مرة أن يقنعها بأن تتركه يمسح وجهه بيده ولكنها رفضت إلا أن تقوم هي بالعناية به ، والإشراف على راحته..

وأخذ والدي مكانه في الغرفة ينظر إليها وهو يدخن غليونه فلما انتهت من عملها التفتت إلى والدي تتفحصه فلما لم تشاهد في وجهه شيئاً عرضت عليه تبديل ملابسه الممزقة ، ثم بدلت فكرها ، مفضلة أن تظل عليه لتتذكر حوادث المساء ..

وفركت أمي يديها وهي تقول :

– ما أصلب عضلاتكما .. وأنت يا شين ما أشد أعصابك ، وأقوى قبضتك .. من كان يظن أن مورغان الجبار لا يستطيع الوقوف أمامك دقائق معدودات ، ولا يستطيع احتمال صدمة

واحدة من قبضتك الحديدية ..

«وأما أنت يا جو فقد أعجبني أنك حملت كورلي بين يديك وقذفت به إلى الأرض كما لو كان رزمة صغيرة .. »

وضحك الرجلان ولم يقل أحدهما شيئاً ، وأما أمي فعادت بعد قليل تقول :

– لقد كنت أعلم يا شين أنك رجل خطر جداً ..

فقال شين : ما كان يجب على مثلك أن تحضر مثل هذه المعركة ..

– ألأنها كانت شديدة متوحشة قاسية ، ولكنك لم تكن من المعتدين ، وكل مافعلته انك حاولت الدفاع عن نفسك وأحسنت الدفاع ..

ورق صوت أمي ، ودمعت عيناها ، وأخذت تبكي ، وهي تقول :

– هل نعمت امرأة برعاية رجلين مثلكما ..؟

وأخذ الرجلان ينظران اليها ، فأما شين فقام من مجلسه وأخذ مكانه بالقرب منها ، يهدىء من روعها ، وأما والدي فغادر مكانه وذهب إلى الشرفة القائمة أمام الباب فوقف يدخن غليونه ، وينظر إلى الأفق البعيد حوله ..

وبعد قليل نادته :

– تعال يا جو ..

فأسرع أبي إليها ، فأجلسته إلى جانبها الأيمن ، وأمسكت يده ، بينما كان شين ممسكاً بيدها الأخرى في الجانب الآخر ..

لم نعد نسمع شيئاً عن فلتشر وجماعته ، ولم نعد نرى أحداً منهم يركب جواده بجوارنا ، وسمعنا في الوقت نفسه أن فلتشر قد غادر القرية إلى المدينة ، كما لمسنا الانقلاب العظيم الذي طرأ على سكان القرية بعد انتصارنا ، وكيف أن أكثرهم أخذوا يتظاهرون بتأييدنا والوقوف معنا ضد فلتشر وأعوانه المجرمين ..

فلما استفاضت هذه الأخبار سألت شين :

– لقد انتهى كل شيء . ولم نعد نسمع شيئاً من فلتشر ..

فضحك وقال : إن المعركة بدأت يابني .. وقد لا تنتهي قبل مدة طويلة ..

وقال والدي : هذه هي الحقيقة ، فلم يعد بامكان فلتشر أن يتراجع بعد هذه الحوادث ، فاما نحن واما هو ، وما أظنه الآن إلا في سبيل البحث عن طريقة جديدة لاحراجنا فاخراجنا ..

فسألت أمي : إذاً فأنتما بانتظار حوادث أخرى من النوع الذي وقع مؤخراً ؟

فقال شين : كلا .. فلست أعتقد أن فلتشر سيحاول هذا اللون مرة أخرى ، والذي أرجحه أن الحركة الأخيرة لم تكن من وحيه ، وإنما هي من وحي مورغان ، ولهذا فمن المنتظر أن يعمد فلتشر إلى سبل جديدة لاقناعنا بمغادرة الأرض .. بعد أن فشلت القوة .. وما أظن أننا سننتظر طويلاً ..

وكان ما توقعه شين أمراً واقعاً ، فقد زارنا في مساء اليوم التالي جوهنسون وهنري شيبستد ، وأخبرانا أن فلتشر قد عاد إلى الوادي ومعه شخص جديد ..

وقد شاهدهما جوهنسون بنفسه عندما نزلا من المركبة ، وكان الشخص الجديد الذي أتى مع فلتشر رجلاً طويل القامة ، عريض الصدر ، يترنح في مشيته بعض الشيء ، وكان في عينيه بريق يدل على الشر والمكر .. كما أنه كان يحمل في حزامه مسدسين كبيرين ..

وقد سمع جوهنسون فلتشر يناديه باسم ويلسون ، ستارك ويلسون .. وعلى الأثر ذهب إلى الصالون للاجتماع إلى كرافتون الذي كان يعرف كثيراً من الناس والاسماء، فلما سأله عن الشخص الجديد ، وفيما إذا كان يعرفه، أجاب أنه يعرف شخصاً من القتلة باسم ستارك ويلسون ، فإذا كان هذا إياه، فمعنى ذلك أن فلتشر قد اعتمد سبيل الاجرام والقتل للوصول إلى أغراضه ،واحراج خصومه .. وأن هذا المجرم مشهور بأنه سريع في إطلاق النار، بارع في إصابة الهدف ، وهو معروف بأنه قتل الكثيرين من الناس حتى الآن ..

وبينما كان جوهنسون يقص هذه القصص ، سأله شين :

– متى وصل فلتشر ورفيقه إلى الوادي ؟

– مساء البارحة ..

وصاح شين به : وانتظرت إلى الآن لتنقل الينا هذا الخبر ؟ انك ستظل مغفلاً كل حياتك ..

والتفت إلى والدي وقال :

– من أشد اصحابك عناداً ، واقربهم إلى أن يفقد اعصابه توري أم رايت ؟

فقال والدي : رايت ..

فالتفت عندئذ شين إلى جوهنسون وقال له :

– اسرع إلى جوادك واذهب إلى منزل رايت و توري فأدعها للقدوم إلى هنا حالاً .. خصوصاً رايت ..

فقال شيبستد : لقد شاهدتهما في الطريق في سبيلها إلى القرية ..

وقفز شين من كرسيه ، وأسرع نحو الباب ، بعد أن أزاح جوهنسون من طريقه ، وأخذ ينظر إلى الطريق المؤدي إلى السوق ، وفجأة سمعنا وقع حوافر جواد يسرع نحو منزلنا ، فصاح شين يقول :

– ستعرفون نتيجة هذا الاهمال الآن ..

وبعد قليل اقتحم «توري» المنزل وهو في حالة يرثى لها من الخوف والذعر والاضطراب .. فلما شاهدنا صاح يقول :

– لقد قتلوا «رايت» ..

وهتف أبي يقول :

– تعال يا فرانك وقص علينا ما حدث ، فإني اعتقد أنه ليس باستطاعتنا الآن مساعدة صديقنا رايت ، ولكننا قد نستطيع الانتقام له من قاتله ...

وقص علينا فرانك قصته ، وكان قد ذهب إلى السوق هو ورفيقه لبعض الشؤون، فلما انتهيا ذهبا إلى صالون كرافتون ليتناولا بعض الأشربة ، فشاهدا فلتشر وويلسون حول طاولة البوكر ..

فلما شاهدهما فلتشر ، تقدم نحو (رايت) وأبدى له رغبته في شراء أرضه بلطف ورقة ، وعرض عليه أن يدفع له ثلاثمائة دولار ثمناً لأرضه ..

ولكن (رايت) رفض العرض رفضاً باتاً وقال بشدة :

– اني لست مستعداً لبيع أرضي في حال من الأحوال لا اليوم ولا غداً ..

وهزّ فلتشر رأسه وانصرف عنه ، وعندئذ تقدم ويلسون منه وقال له :

– لو كنت مكانك لفعلت .

فأجابه رايت : ليس هذا من شأنك .. فاذهب من وجهي .

فقال ويلسون : اني مكلف بإدارة مصالح المستر فلتشر ، ولهذا جئت إليك ، ولكنك مجنون ما في ذلك شك .. وما الذي ينتظره المرء من رجل لا يعرف أصله ..

فقال له رايت بشدة : اني أشرف منك أصلاً ونسباً ..

فقال ويلسون : أتكذبني ..؟

فقال رايت : أنت كذاب بالتأكيد ...

وساد الصمت في الصالون على الأثر وقال ويلسون

– اسحب كلامك .. أو أضطر إلى تأديبك ..

وعندئذ مدّ (رايت) يده إلى مسدسه ، ينتزعه من مكانه ، فأطلق ويلسون عليه النار فسقط الى الأرض ..

وكان الخبر قد انتشر بسرعة ، فجاء بعض جيراننا للاطمئنان والاستماع الى آخر الأخبار ، وكنت قد أخذت مكاني الى جانب

امي التي كانت تراقب شين ، ولا ترفع عينيها عنه ..

أما هو فقد كان هادئاً في مكانه ، يدخن سيغارته ، ويجيل نظره فيمن حوله ، بينما راح أبي يقول مخاطباً الحضور :

– إذن فنحن بين أحد أمرين إما أن ننزل عن مزارعنا لفلتشر بالسعر الذي يريده ، أو نتعرض لرصاص القاتل ويلسون الذي استأجره لهذه الغاية ..

ثم سأل أبي فرانك توري :

– هل تعرض لك ويلسون ؟

– لقد نظر إليّ وقال : من المؤسف أن (رايت) لم يبدل رأيه ..

– ثم ماذا ؟

– ثم غادر الصالون مسرعاً وجئت لأخبركم بما وقع ..

وصاح جيم لويز : ولكن أحداً لا يستطيع المضي في قتل الناس دون أن يعترضه أحد ..

فهتف شيبستد يقول : اسكت ألم نس إلى الحيلة ... لقد قام ويلسون بإحراج رايت ، حتى مد يده إلى مسدسه ، فقتله ، وباستطاعة ويلسون الآن أن يقول : أنه إنما كان يدافع عن نفسه ، وان رايت قد سبقه فمد يده إلى مسدسه .. وسيعمد إلى مثل هذه الحيلة معنا الواحد بعد الآخر ..

وقال جوهنسون : هذه هي الحقيقة ، ولو أننا أقمنا الدعوى عليه بتهمة القتل وسفك الدماء ، لما أدانه القضاء ، ولوجد بين الجمهور من يشهد أنه إنما كان يدافع عن نفسه .. وإن

كان المعروف أن ويلسون من أسرع الناس في سحب مسدسه وإطلاق النار ..

وقال لويز : ولكن يجب وقف هذه المحاولات الاجرامية . فليس باستطاعتنا الوقوف في وجه ويلسون ، وما نحن من القتلة ولا من البارعين في حمل السلاح .. ومهما كان حكم القانون على ويلسون فما هو إلا قاتل أحرج رفيقنا ليمد يده إلى مسده ليقتله قبل أن يتمكن من سحب سلاحه ..

وعندئذ فقط تكلم شين وهتف يقول :

ـ هذا صحيح .. لقد كانت الجريمة مدبرة ، وما ويلسون إلا معتد قاتل ..

ولاذ الجميع بالصمت ، واستقرت العيون عليه ، ثم تابع حديثه يقول :

ـ والواقع أنه لا خوف عليكم أنتم بعد الآن ، وبمقدوركم أن تهربوا عندما تسمعون إشارة الخطر الأولى ، ولن يتعرض لكم فلتشر أبداً ، فما يهمه مثلكم ، وما اختار (رايت) إلا لتخويفكم فقط ، فكان والحالة هذه الضحية الأولى ، وأما بعد الآن فإنه سوف يوجه اهتمامه الى الشخص الذي تلتفون حوله ، وتنتظرون الإشارة منه .. الشخص الذي يجمعكم ويوحد صفوفكم .. انه سيهتم بجو ستار . وستكون الخطوة الثانية موجهة نحوه ..

واهتز الحاضرون ، وقال أحدهم :

ـ يبدو أنك تعرف كثيراً مما يدور في خلد خصومنا ..؟

ـ هذا هو الواقع ..

وعرتنا رعدة ، فمن يكون هذا الرجل الذي نزل علينا ، ومن يكون هذا الشخص القوي الذي يستطيع الوقوف في وجه خمسة من القتلة دفعة واحدة ..؟

وعضّ أبي على غليونه وقال :

ـ دعوني أصارحكم بالحقيقة ، إن وجود شين بيننا ، يمدنا بالقوة والنشاط والطمأنينة .. ولا أعتقد أن هناك من خطر على أحد منا في الوقت الحاضر ، ولا بد أن ينتظر فلتشر أياماً قبل أن يخطو الخطوة التالية ، وفي هذه الاثناء تكون قد اتصلنا باصدقائنا جميعاً ، وعرفنا رأيهم في الجريمة ، ثم نقرر موقفنا ..

ومن المؤكد عندي أن فلتشر سيحاول الاتصال بي أو التعرض لي كما قال شين ، والأفضل في هذه الأثناء أن نقلل من نزولنا الى المدينة ريثما تهدأ الحالة ، منتظرين ما يكون من خصومنا ..

وهكذا صار الاتفاق على أن يهدأ الجميع في هذه الأثناء ، وأن يتركوا الأمر لوالدي ليقرر موقفه على ضوء الحوادث المقبلة ..

وما كاد والدي يودع الجماعة ، ويعود الى الغرفة ، حتى أعرب لشين عن رغبته في زيارة مزرعة (رايت) وجمع عراضه وحوائجه لارسالها الى أهله ، فعارض شين الفكرة ، أخبره أن فلتشر وويلسون قد يكونان بانتظاره في ذلك المكان ، ولذلك فالأفضل ترك الأمر لكترافتون يدبر المسألة كما يشاء ..

وأيدت أمي رأي شين ، فوافق والدي على أن لا يتحرك من

مكانه ، وعلى الأثر غادر شين الغرفة إلى الخارج للاستمتاع بجو الليل اللطيف .

فلما خلا والدي إلى نفسه هتف يقول :

– لقد أقحمناه في أمور لا شأن له بهـا ولا مصلحة ، ولو كنت أعلم أن فلتشر سيصل إلى هذا الحد من احراجنا لما سألته البقاء عندنا ، فالذي يبدو لي أن شين قـد أمضى حياته مكافحاً محارباً خصومه ، وخصوم سواه ، وليس من الحق أن أزيد على متاعبه متاعبي .. ولهذا فالأفضل أن أبيع أرضي إلى فلتشر وأذهب بسلام ..

وصحت عندئذ في وجه أبي أقول :

– إن شين لن يغادر هذا المكان قبل تسوية الحساب مـع فلتشر ، سواء بقيت أنت أم ذهبت ..

وتطلع والدي إليّ دهشاً عندما سمع كلمتي هذه ، ثم سمعت أمي تقول :

– إن بوب على حق.. فلسنا نستطيع أن نترك شين وحده ، بعد أن أقحمناه في هذه المشكلة ، خصوصاً وأنه لن يهرب من وجه فلتشر وويلسون أبداً ، ولهذا فيجب علينا أن نبقى معه.

فهتف والدي يقول: من قال لك إني أفكر في تركه وحده، كل ما أردت أن أقوله أني على استعداد للتضحية بأرضي هذه في سبيل المحافظة على حياته ، فإذا كان يرغب في مغادرة المكان فانا على استعداد للذهاب معه ..

فقالت أمي : ولكنه باق في مكانه ..

فهتف أبي : وأنا كذلك باق في مكاني إلى جانبه حتى الساعة الأخيرة ..

وظهر السرور على وجه والدي، فقد استقر أخيراً على الخطة المثلى التي كان حائراً يبحث عنها . ويدرس مختلف الملابسات ليعرف فيما إذا كان من المصلحة أن يقاوم أو يذهب ، فلما استقر رأيه على البقاء والمقاومة أحس براحة عظيمة ، وعلت وجهه طمأنينة هانئـة ..

●

فلمـا أصبح الصباح تناولنا طعامنا معاً ، ثم ذهب والدي وشين إلى المدينة لحضور الاحتفال بجنازة المستر رايت، وصرفت النهار مع أمي نتحدث ونلعب ..

فلما كان الظهر عاد الرجلان من المدينة وكانت والدتي قـد اعدت لهما طعاماً شهياً ، فجلسا يأكلان ويتندران ..

وقال والدي يحدثنا :

– لقد احتفل سكان المدينة بدفن المستر رايت احتفالاً حسناً وألقى كرافتون كلمة لطيفة ، ورفض النجار أن يأخذ شيئاً ثمناً للنعش ، وكذلك أبى الحفار أن يتناول سنتاً واحـداً ثمناً لحفر اسم المرحوم على قبره ..

ولقد ظهر لي ايضاً أن الناس قد ضاق صدرهم لهذه الجريمة ، وأنهم أخذوا يتحدثون بذلك وينكرون مثل هذه الأعمال ..

وقال شين : ولقد حضر الجنازة أربعـة وثلاثون شخصاً ،

وقد سمعتهم يثنون على المستر ستارت زوجك الذي ألقى كلمة لطيفة ، وهذا يدل على أن زوجك يتمتع بمركز مرموق في هذه الناحية ، ولست استبعد أن يكون رئيس البلدية بعد سنوات..

فهتفت والدتي تقول : بعد سنوات .. إذاً فأنت تنتظر ..؟

ولم تستطع اكمال حديثها ، فقد سمعنا وقع حوافر الجياد تقترب من منزلنا ، فأسرعت إلى النافذة ، وصاح والدي يقول:

— لا بد أن يكون القادم فلتشر ، فإنه بعد أن شاهد نقمة الناس عليه، يهمه تسوية هذا الخلاف بأسرع ما يكون من الوقت.

وصحت أقول من النافذة :

— إنه فلتشر وثلاثة من رجاله ..

وأسرع والدي إلى بندقيته ، فأمسك بها بيده ، ثم مشى نحو الباب .. ووقف على عتبته ، بينما وقف شين غير بعيد منه ..

وتقدم فلتشر لما شاهد والدي يقف على عتبة الباب ، ظاهر البشاشة ، لطيفاً محبباً ، وقال :

— متأسف لازعاجك يا ستارت ، بعد الحادثة المؤسفة التي وقعت الليلة الماضية ، وكان بالامكان تحاشيها لولا أن المستر رايت وصف المستر ويلسون بالكذب .. وكان هذا خطأ عظيماً منه.

وقال والدي : نعم لقد اخطأ .. ولكنه رجل قد تعود قول الحق دائماً وأبداً ..

ولمحت أن ويلسون قد اهتز وهو على سرج جواده.. ولكن والدي تابع حديثه قائلاً :

— والآن ماذا تريد مني ..؟

فقال فلتشر : لا فائدة من إختلافنا ، ولا أرى ما يدعو إلى ذلك .. ما مضى قد مضى ، والأمل أن لا يقع شيء في المستقبل ، ولما كنت بحاجة إلى أرضك فأنا على استعداد لشرائها ، ولما كنت بحاجة إليك ، فإني مستعد لأن أدعوك إلى العمل عندي لتكون رئيس عمالي ، بعد أن قررت الاستغناء عن مورغان ..

وأما المنزل الذي أنت فيه ، فبالإمكان الاتفاق فيما بيننا على أن تظل مقيماً فيه .. وكذلك أترك لك الحق بتربية مواشيك في أرضي شرط أن تعمل لي ، وأن تكون موظفاً عندي ..

ثم اني أيضاً بحاجة إلى شين صديقك ، وأريد أن تكونا معي .. وأن تعملا لي ...

وظهر العجب على وجه أبي ، فلم يكن ينتظر مثل هذا العرض ولكنه تمالك نفسه وقال :

— وماذا يكون مصير الآخرين ..؟

— يجب أن يذهبوا ..

فقال أبي : لا ..

فقال فلتشر : اني مستعد لأن أعطيك الف دولار لهذا المكان ، وهو سعر محترم بالتأكيد ..

فأجاب أبي بالرفض ، فظهر الغضب على وجه فلتشر ، ولكنه تمالك نفسه وقال :

— اني سأرفع الثمن إلى الف ومائتي دولار .. وسأترك لك الوقت الكافي لدرس هذه القضية ، ولن أقبل جوابك الآن ،

ولكني سأنتظرك مساء في صالون كرافتون لأسمع جوابك ..

وأداز جواده وعاد من حيث أتى ، ولكن ويلسون لم يتبعه حالاً ، وظل في مكانه ملياً ثم قال :

– الافضل يا ستارث أن تدرس هـــذه القضية ، فليس من مصلحتك أن ينعم في هذا المنزل غيرك ..

وأمسك عندئذ ويلسون بعنان جواده ، يريد أن يتبع فلتشر ، وفجأة سمّر في مكانه، لما شاهد أبي يقبض على البندقية، وعندئذ سمعنا صوت شين يقول :

– لا تفعل يا جو .. فإنه صديق قديم ..

وظهر شين للعيان الآن .. بعـد أن كان واقفاً خلف ابي ، بحيث لم يكن أحد من رجال فلتشر يستطيع رؤيته .. فلمـا شاهده ويلسون لأول مرة ، عرته رعدة كما بدا لي ، ومدّ يده إلى حزامه ، وصاح يقول بصوت مختنق :

– أهذا أنت ..؟

وسمعنا شين يقول بصوت هادىء :

– هذا أنا ..

وعندئذ شاهدنا منظراً عجباً ، إذ أسرع ويلسون يعدو على جواده دون أن يقول كلمة أخرى .. وكأنـــه يهرب من خيال مخيف ، وشر مستطير ..

★★★

لم يجرأ أحد منا على أن يسأل شين عن السبب الذي دعا

ويلسون إلى الاضطراب عند رؤيته ، ولا إلى ما يعرفه عنه ، فقـد عودنا أن لا يتحدث عن نفسه ، وعودناه أن لا نسأله عن شؤونه الخاصة ، وأخباره الماضية ..

ولحظت بعد ذهاب ويلسون أن والدي لم يعد ينظر إلى أمي، وانها بدورها لم تعد تنظر إليه ..

لقد أخذت تفكر في الساعة الرهيبة القادمة ، التي حددها فلتشر للجواب ..

وكنت واثقـــاً أن أبي سوف يذهب إلى صالون كرافتون بالتأكيد ، وانه سيحمل إلى فلتشر جوابه بالرفض، ما في ذلك شك ..

وعندئذ أحسست بقشعريرة تسري في جسمي ، وأخذت أفكر فيما يكون من نتائج ذلك وهل سيعود أبي إلينا حياً . ام أن ويلسون سيعترضه ويحرجه ثم يقضي عليه بحيلة من حيله، وبواسطة سرعته في سحب مسدسه قبل خصمه ..

وكنت أعلم إلى هذا أن والدي لم يكن من البارعين في شؤون السلاح، وان كان بالتأكيد يصيب الهدف مثل سواه من المزارعين، ولكنه لم يكن بمثل سرعة رعـاة البقر الذين نسمع عنهم ، ولا بمثل سرعة المجرمين منهم الذين ملأت الصحف أعمدتها بأخبارهم ومغامراتهم ..

وبعد قليل شاهدت أمي تجلس إلى جانب والدي الذي جلس أمام عتبة الباب يدخن غليونه، بانتظار الساعة الرهيبة، فتركتهما وشأنها ورحت أدور حول المنزل ، لا ألوي على شيء ولا أعرف

إلى أين أسير ..

وضاق صدري من وحدتي ، فعدت إلى حيث كان أبويّ فجلست على الأرض أمامهما ..

ومدّ أبي يده وأخذ يتحسس شعري ، ويلعب برأسي ..

وعندئذ سمعته يقول و كأنه يحدث نفسه :

– نعم سأذهب في الموعد المعين .. فلست ممن يتأخرون أو يجبنون ، ولا بد أن يكون ويلسون وفلتشر بانتظاري ، ولست اكتمكما اني لست مثل ويلسون سرعة في سحب مسدسي من حزامه ، ولكني أعتقد أن عندي من القوة ما يمكنني من القضاء عليه أيضاً ..

وعلتنا رعدة .. وأمسكت أمي بيد أبي تضغط عليها بكل قواها .. بينما صمت أبي ملياً ثم راح يقول :

– ولكني مؤمن .. وهذا ما يزيد في قوتي ومضاء عزمي .. بأنه إذا أصابني شيء .. فإن هناك من سيحمي عائلتي ويحافظ عليها ..

ولم يكن أحد يعلم أن شين كان يجلس غير بعيد عنا ، ولم نعلم بوجوده إلا حين تحرك من مكانه ، وغادر المنزل من باب المطبخ إلى الحديقة القائمة حوله ..

وحاولت أمي أن تلحقه ، ولكنها لم تستطع إلى ذلك سبيلاً ، فما كادت تقف في مكانها ، حتى كادت تهوي إلى الأرض ، فتلقاها أبي بين ذراعيه القويتين وقال لها :

– اني اعتمد عليك في مساعدته ليربح المعركة .. ففي

استطاعتك أنت أن تقلبي الموقف رأساً على عقب ..

وبعد أن سكت ملياً ، عاد يقول :

– لن آخذ شيئاً من الطعام الليلة ، وسأكتفي بقدح من القهوة.

وأسرعت أمي إلى المطبخ لتحضير القهوة ، وأخذت أفكر أنا في شين وأين يكون ..؟

وغادرت مكاني أبحث عنه ، فوجدته في المخزن ، يقف على بابه ، ويتطلع إلى السماء وهو يدخن سيغارته ، فلما شاهدني هتف يقول :

– يجب أن تعود إلى المنزل يا بوب .. ولتؤمن بأن كل شيء سيسير على ما يرام ..

وتركني وشأني .. وسار وحده في الحديقة ..

وأخذت أنظر إليه ، فلمحت ولأول مرة ، ان مسدسه في حزامه .. وانه قد وضع عليه ملابسه القديمة التي كانت عليه لما أقبل علينا لأيام عديدة خلت ..

وأسرعت إلى والدي أقص عليه الخبر .. وقبل أن يقول أبي شيئاً كان شين ، قد أصبح على الباب خلفي ، وقد وقف كالمارد ، براق العينين ، ظاهر القوة ، قاسي النظرات ..

وعندئذ تذكرت ما سمعته من المستر « هول » حين قال :

– ان شين أخطر رجل شاهده في حياته ..

ثم تذكرت في الوقت نفسه ما قاله والدي : من انه أخلص انسان لأصدقائه ..

وكان ما قاله الاثنان أمراً واقعاً فقد كان شين ، يتقمص

الشخصين ، فهو خطر إلى أبعد حدود الخطر، وهو مخلص مهذب إلى أبعد حدود الاخلاص والتهذيب ..

وما كدت انتهي من الاستقرار في افكاري هذه حتى سمعته يقول : سوف اسوي هذا الخلاف بنفسي .. وسأذهب انا لمقابلة فلتشر ..

فقال ابي :

هذا لن يكون أبـــداً ، أشكرك من قلبي على اخلاصك ، ولكن الخلاف خلافي ، وعليّ أنا أن أسويه بنفسي ..

وهزّ شين رأسه وهو يقول :

– انت مخطىء كل الخطأ ، فليس هذا النوع من الخلاف من شأنك.. انه من شأني أنا.. انت مزارع وليس من شأن المزارعين حمل السلاح ، ومطاردة المجرمين ..

وضرب والدي الأرض بقدميه وهو يقول :

– ومن انبأك اني مضح بنفسي من أجلك ، اني أقوم بواجب فرضته على نفسي ، وكان من شأن هـذا الواجب ، انه يساوق مصلحتك ، فكان من أثر هذا تزاوج المصلحتين ..

فقال والدي : كن عاقلاً .. ولا تدع الناس يتحدثون عني ويقولون اني تهربت من الساعة الحاسمة وأرسلتك مكاني ، وهب أنك تمكنت من ويلسون ؛ فيبقى فلتشر ، وعندئذ نعود إلى ما كنا عليه قبلاً من خلاف وتهديد ووعيد ..

– أبداً ان أحداً لن يقول هذا الكلام ، فإنهم يعلمون اني أعمل معك ، وأني اتكلم باسمك ، وأدافع عن مصالحك ، ولهذا

فلست غريباً عنك ولا رجلاً يقحم نفسه فيما لا يعنيه ..

وأخيراً يجب أن تعلم اني اعتبر هذه القضية قضيتي ، واني لا اسمح لأحد أن يتدخل في شؤوني حتى ولو كنت أنت ...

وبأسرع من لمح البصر مدّ شين يده إلى مسدسه ، فأخرجه وضرب أبي بقبضته على رأسه، فسقط إلى المقعد الذي كان امامه من هول الصدمة ، وغاب عن صوابه ..

●

اصابتني رعدة ما أحسست في حياتي مثلها ، ونظرت إلى وجه شين ، فإذا به قد أعاد مسدسه إلى قرابه بمثل السرعة التي سحبه منه ..

ثم نظرت إلى أمي فإذا هي لم تتحرك من مكانها ، حتى بعد أن هوى أبي الى الأرض ، ثم سمعت شين يقول :

– كنت أخشى أن يتبعني أو يسرع خلفي وهذا ما لم أكن أريده ، ولهذا اضطررت إلى أن أفعل ما فعلت ..

فقالت أمي بصوت رقيق يشبه الهمس :

– لقد عرفت ذلك ..

فقال شين : وسيعود إلى صوابه بعد قليل ، ولكنه سيظل في دوخته مدة من الزمن ، فإذا عـاد إلى صوابه ، فاشرحي له الموقف ، وقولي له : ان احداً لا يجب أن يخجل من نفسه إذا كان المنتصر عليه هو أنا ..

وتولتني الدهشة فما كان لشخص ان يمدح نفسه ، ويزهو إلى

هذا الحد ، ولكني لما حددت النظر في وجهه لم أجده مختالاً ولا زاهياً ، بل هادئاً باسماً ، ذلك انه كان يشعر في قرارة نفسه انه انما كان يقرر حقيقة واقعة ، وانـــه من الأشخاص الذين لا يغلبون ..

ثم غادر الغرفـة ، وذهب إلى الاسطبل ليستقل جواده في طريقه إلى صالون المستر كرافتون ..

•

ما كان لشيء أن يقعدني عن اللحاق بشين وهو في طريقه إلى المدينة ، ولكني لم أتحرك من مكاني حالاً ، وأخـــذت أراقب والدتي التي كانت تنظر إلى شين يغادر الغرفة الى الخارج ..

فلما شاهدتها بعد ذلك تتقدم نحو والدي ، وتجلس إلى جانبه للعناية به ، اسرعت بمغادرة المنزل خلسة .. دون أن أدري فيما إذا كانت قد فطنت لذهابي أم لم تفطن ، ولو انهـا فطنت فهي لم تسألني ان اعود ، ولا رفعت صوتها منذرة محذرة ..

فلما اصبحت في الخارج ادرت نظري يميناً وشمالاً فلم اره ، فانتظرت ملياً فإذا به يخرج من الاسطبل يقود جواده ، فأسرعت عندئذ الى الطريق واطلقت ساقي للريح .. في طريق المدينة ..

ولقد كان من عادتي وانا صغير ان اقطع هذا الطريق مرحاً صائحاً لاعباً ، وأما اليوم ، وفي هذا المساء ، فقد كان الألم يحزّ في قلبي ، وكان الخوف على حياة هذا الصديق العزيز يثير عواطفي وحزني ..

وشاهدته بعد قليل يقترب مني ، وكأنه الجبل المشيد ... قوياً هادئاً ، كما شاهدته لاول مرة حين أقبل علينا ، ونزل عندنا ..

فلما قاربني لم استطع منع نفسي عن الزفير ، وكان الصوت خفيفاً بالتأكيد ، ولكنه سمعه وعرفني ، فترجل عن جواده بمثل لمح البصر ، واحتواني بين ذراعيه ، ثم حملني وهو يقول :

— ما كان عليك أن تغادر المنزل في مثل هـــذه الساعة من الليل .. هيا اذهب إلى أمك فإنها في أشد الحاجة إليك ..

وبعد ان لعب بشعري ملياً تركني وشأني بعد أن وعدته بالعودة ، ولكنه ما كاد يذهب في سبيله قدماً ، حتى أخـذت أعدو خلفه ..

لست أدري إذا كان قد اطمأن إلى عودتي ، ولكنه على كل حال ، لم ينظر إلى خلفه ، ماضياً في سبيله إلى حيث أراد القدر ان يذهب به ..

فلما وصلنا إلى باب الصالون شاهدت عدداً من الناس على بابه ، وكان مارلين بينهم ، وكانوا جميعاً ينظرون في الطريق ليتأكدوا من شخصية الفارس المقبل ..

فلما شاهد مارلين وجه شين ، اسرع يعدو إلى داخل الدار ، وكان شين عند وصوله ، قد ترجل عن جواده ، تاركاً سرجـه عليه ، كأن جواده يفهم ما يقصده منه ، أو كأنه كان يدعوه إلى انتظاره حتى يعود إليه ..

ولما اشرف على باب الصالون نظر إلى من بقي أمامه من الناس وكانوا ثلاثة اشخاص فسأل احدهم :

– اين فلتشر ؟

فنظر الواحد منهم إلى الآخر ، ثم إلى شين ، وأخيراً هتف احدهم يقول :

– لا أدري .. كان هنا لدقائق خلت ..

قطع شين عليه حديثه ، بصوت قوي شديد الاسر ، وقال :

– اين فلتشر ؟

فأشار احدهم عندئذ إلى الداخل ، ولما حاولوا الابتعاد من طريقه صاح بهم :

– تقدموني .. ولا يلتفتن احدكم خلفه وهو في طريقه إلى البار ابداً ..

وعرت الثلاثة رعدة بالتأكيد ، وفعلوا ما امرهم شين ان يفعلوا .. فلما دخلوا الى الصالون كان شين خلفهم ..

وقفت امام النافذة المطلة على الصالون ، لأشاهد مايكون في الداخل ، وكان كرافتون والمستر وير قد اسرعا الى الداخل فلم يرياني ولم يفطنا لوجودي ..

وكانت الصالة مليئة بالزبائن ، وكانت في هذه الليلة بصورة خاصة تعجّ بسكان البلدة ، وكانت الغرفة المخصصة للبوكر والتي تتصل بالصالون تكاد تضيق على رحبها بمن احتشد فيها من الناس.

ولكن شيئاً غريباً كان يملأ المكان ... كان هادئاً قد لاذ فيه الزبائن بالصمت ، فهم لا يتكلمون ولا يتندرون ، ينظرون بحذر الى الشخص الغريب الذي وقف على عتبة الباب وسيغارته في فمه ..

كانت هيئته بالتأكيد تبعث على الخوف والذعر ، هادئاً ساكناً باسماً ، وهو يدخل الى المكان الذي احتشد فيه خصومه بسلاحهم الكامل ، وعددهم التام ..

ادار عينيه فيمن حوله ، حتى استقرتا على شخص كان يجلس على كرسي في طرف الصالة ..

عرفته حالاً فقد كان ستارك ويلسون القاتل .. فحددت نظري في وجهه فإذا به ينظر الى شين نظرة غريبة فيها شيء من الدهشة ما في ذلك شك ..

وأدار شين نظره مرة اخرى حتى استقر على غريس ، الذي كان لا يزال يحمل ذراعه المكسورة على صدره ..

وأدركت ان شين لماشاهده افترت شفتاه عن ابتسامة خفيفة رقيقة .. اجابه غريس بمثلها ..

ثم نظر شين – والهدوء لا يزال مخيماً على الصالون – الى خادم البار وسأله :

– اين فلتشر ..؟

وتمتم الخادم يقول : لست ادري .. لقد كان هنا منذ وقت قصير ..

فحوّل شين نظره إلى الشرفة التي كانت تشرف على الصالون فوجدها خالية ، ووجد بابها مقفلاً ، فسار الى غرفة كرافتون فلما لم يجد احداً ، عاد الى الصالون ، ونظر الى مارلين وقال :

– اين فلتشر ..؟

ولم يجبه مارلين على سؤاله ، فقد تحرك عندئذ ويلسون من

مكانه ، وصاح يقول :

– اين ستارت ؟

تقدم ويلسون حتى وقف الى جانب البار ... واما شين فقد ثبت في مكانه ، قريباً من الباب ، وكانت الشرفة الخالية خلفه ..

وعندئذ استدار شين نحو ويلسون وسأله :

– اين فلتشر ..؟

– بل اين ستارت ..؟

وابتسم شين في هذه اللحظة ، وقال :

– عندي كلمات اريد ان اقولها لفلتشر.. وما دام غائباً عن هذا المكان ، فلا أرى مانعاً من تسوية امرك .. فانت تحاول ان تقحم نفسك ابداً فيما لا يعنيك ..

كان صوت شين هادئاً رقيقاً ، حتى ليحسب من يسمعه انه يتحدث الى صديق حميم ..

ولكن ويلسون لم ينخدع بهذه الرقة ، فقد لحظت انه عاد الى نفسه بسرعة ، وهتف :

– ليس من خلاف بيننا ، فإذا اردت ان تذهب من حيث اتيت فأنت وشأنك .. لأني اريد ان اتحدث الى ستارت وليس اليك ..

فصاح شين يقول :

– لن يكون عندك بعد الآن شيء تتحدث به الى احد ..

فقد انتهت ايام اجرامك ..

أجفل ويلسون لهذا الانذار الصريح ، وأدرك أن خصمه يحاربه بسلاحه ، فقد تعوّد إحراج الناس ليدفعهم إلى مدّ أيديهم الى مسدساتهم ، ليتخذ عندئذ من قتلهم حجة على أنه إنما كان يدافع عن نفسه ، ويزود عن حياته ..

وقد جاء اليوم من يحاربه بسلاحه ، ويماكره بمثل مكره ، ويدفعه إلى سحب مسدسه ، على ملأ من الناس ، وأمام الخصوم والأصدقاء على السواء ..

وأدرك ويلسون أن خصمه ليس بتاركه أبداً ، وقد حاول لدقائق خلت أن يقنعه بأنه لا خصومة بينهم ، وأنه إن تركه وشأنه ، فهو لن يتعرض له ، ولكن خصمه يأبى التسوية ويفرض عليه المعركة فرضاً ..

توقف متمهلاً لا يدري ما يفعل ، وعندئذ سمع خصمه يقول له :

– إني لا أزال بانتظارك يا ويلسون ، فهل يجب علي أن أدفعك إلى المدافعة عن نفسك دفعاً ، بأن أصفعك مثلاً ..؟

وحبس الناس أنفاسهم ، فقد كان التهديد شديداً قاسياً ، نزل على الناس نزول الصاعقة ، ووجم ويلسون له واهتز غضباً وحقداً ، وامتدت يده عندئذ الى مسدسه وهو يقول :

– كنت أعلم أيها المغامر المشهور أنك غير تاركي . وإنك في سبيل البحث عني كدأبك دائماً وأبداً ..

بمثل لمح البصر سحب ويلسون مسدسه من حزامه ، وأطلق النار بينما كان رصاص مسدس شين ينطلق وهو في قرابه ..

سمّر الناس في مكانهم ، فما رأوا في حياتهم مثل هذه السرعة في إطلاق النار وإصابة الهدف ، وجودة الرمي ..

وانجلى غبار البارود ، عن شين في مكانه ثابتاً ، بينما أصيب ويلسون في يده التي يحمل فيها المسدس ، فسقط سلاحه الى الأرض وبدأ الدم ينزف منه ، وأخذ يتراجع ناحية البار ، وهو يحاول أن يسحب مسدسه الآخر من قرابه ..

وعندئذ اطلق لوبين النار ثانية فأصابه في صدره ، فوقع يتخبط إلى الأرض ..

وشاهد الجميع شين عندئذ يمسح شعره ، وهو يقول :

لقد انذرته ، وتركته يدافع عن نفسه فلم يتعظ ...

وتحرك الناس من مكانهم ، واخذوا يتحدثون ويتكلمون دفعة واحدة ..

لقد سمعوا بالتأكيد ما قاله ويلسون عن الغريب ، فقد دعاه بالمغامر المشهور ، وكان هذا يطارد اللصوص والقتلة ورجال العصابات اينما كانوا ، واينما حلوا ، ثم لا يظفر اعداؤه به مهما حاولوا ومهما تفننوا في المخاتلة والحيلة ..

وطار عقلي ، ورحت أقول لنفسي :

ـ أهذا شين المغامر المشهور الذي طبقت شهرته الآفاق والذي نزل بلدتنا هادئاً باسماً كأنه أحد العمال العاطلين ، دون أن يفطن لسره انسان أو يعلم بخبره أحد ..

وفجأة دوى الرصاص مرة ثانية ، وكان مصدره من الشرفة المطلة على الصالون ، وكان شين لا يزال في مكانه ، بصفت ما تناثر من شعره ، ومرت الرصاصة بجانب رأسه ولكنها لم تصبه ، وانفتل بمثل سرعة القنبلة ، واخذ يطلق النار من خلال الزجاج الذي كان يفصل بين الشرفة والصالون ..

ونظرت إلى حيث كان يطلق رصاصه ، فاذا فلتشر يحمل بندقية في يده وهو على الشرفة ، قد أخذ يتهاوى في مكانه ... ثم يسقط على الارض بعد أن أصابه رصاص شين في رأسه وصدره قبل أن يتمكن من اطلاق رصاصة ثانية ..

لقد اذهلتني سرعة شين في اطلاق النار ، وفغرت فمي من براعته في اصابة الهدف ..

رصاصة واحدة أصابت يد ويلسون فكسرتها وسقط المسدس منها إلى الارض ...

ثم رصاصة ثانية ذهبت بحياته لما نفذت الى مكان الحياة من صدره ..

وكذلك كان مصير فلتشر ، رصاصة في صدره وأخرى في رأسه وانتهى الأمر ..

لم تستغرق المعركة أكثر من دقائق معدودات ..

وسمعت شين يقول ، بين ذهول الناس وصمتهم :

ـ اظن أن كل شيء قد انتهى .. وان سكان هذه البلدة يستطيعون العيش بسلام بعد اليوم ..

ولم يجبه أحد على كلماته ، ولعله كان يتحدث الى نفسه ، فقد

كان في هذه اللحظة مشغولاً بتعبئة مسدسه .. برصاص جديد..

ومشى الى باب الصالون .. والناس لا يتحركون من مكانهم، وقد أذهلهم هدوءه ورباطة جأشه ، فلما اصبح على عتبته التفت يقول :

– اني مغادر هذه البلدة ، فقد انتهت مهمتي ..

غادر الصالون الى الشارع ..

وأسرعت خلفه ، وانا أصيح :

– شين ... شين .

فاستدار فلما شاهدني صاح يقول :

– بوب .. ما الذي كنت تفعله في هذا المكان ..؟

– لقد حضرت المعركة من اولها الى آخرها ..

فضحك وقال : من الصعب اصلاحك كما يظهر ، هيا اذهب إلى المنزل ، فالساعة متأخرة، ومن كان في عمرك يجب أن يكون في فراشه في مثل هذا الوقت ..

وسكت مليا ثم تابع حديثه يقول :

– بلغ سلامي الى ابيك وامك ، وقل لهما اني قد غادرت الوادي ، وانه لم يبق هناك ما يخشيان منه .. ومن يدري فقد ازوركم في يوم من الايام ..

فأجبته : نعم يا شين ..

وشاهدت الجواد يتحرك عندئذ ، ويبتعد عني رويداً رويداً ، ثم سمعت اصوات الرجال الذين كانوا في الصالون ترتفع، ويعظم اهرج ومرج، فاردت العودة الى الصالون ، فلما وصلت

الى بابه سقط : دمعة على وجهي ، ثم ملأت الدموع عيني .

وبعد قليل سمعت صوت المستر وير ، يأخذ بيدي ، ثم يذهب بي على جواده الى المنزل ..

لست ادري بماذا كنت أفكر في أثناء الطريق ؟ لقد غمرت الدموع عيني فلم أعد أعي على شيء ..

وتتابعت فصول هذه الفاجعة أمام ناظري ، فلم أعد اتمكن من تمييز فصولها ، وتحقيق اطرافها في كثير ولا قليل ..

ولكن الذي كنت اعلمه ، ان شين قد انقذنا ، وحفظ لنا ارضنا ، وردّ كيد الاعادي عنا ..

ولكن ترى هل أراه في المستقبل ؟

وهل يزورنا كما وعد أن يفعل ؟

إن هذا بالتأكيد امر يصعب التحقق منه في الوقت الحاضر..

ولكن مهما يكن الامر، فلسوف ادعو الله ان يحفظه ويجنبه الاخطار والمهالك ، فقد كان نعم النصير المنقذ ..

★★★

لما وصلنا الى البيت وجدت ابي وامي حيث تركتهما واجمين ساكتين في غرفة المطبخ ، صامتين لا يتحدث احدهما الى الآخر، ولم تقل امي شيئاً لما رأتني ، ولم يتحرك احد منهما لما شاهداني ، فقد ظلا في مكانهما ينتظران ما نقوله ..

ورأيت أبي ينظر الى المستر وير ، ثم لا يجرأ على سؤاله عما حدث .. ولكن هذا ما عتم ان هتف يقول :

– لقد إنتهت مشاكلك يا ستارت ..

وهزّ أبي رأسه وهو يقول :

– كنت انتظر هذه النتيجة ، فقد تمكن من ويلسون وأرداه قتيلاً ، قبل أن يصلوا اليه ..

وألقى راسه بين يديه فصاح وير :

– ويلسون . وفلتشر أيضاً ..

واهتز والدي لما سمع الخبر ، وراح يقول بصوت تخنقه العبرات :

– هذا صحيح .. فمثله يقوم بعمله كاملاً غير منقوص..

لقد منعني من الذهاب بحجة ان هذا شأنه لا شأني ، ولو تصورت الآلام التي تحملتها في غيابه لرثيت لحالتي ..

فقال وير : اسمع يا ستارت .. ان الناس يعرفون في البلدة انك لم تبق في منزلك الا مرغماً، وهم بالتأكيد فرحون مبتهجون على أن شين المغامر المشهور قد حل محلك

فأجفل ابي وقال : ماذا تقول ..؟

– نعم هذا اسمه، ولا بد ان ويلسون كان يعرفه ،ولهذا تردد منذ اللحظة الاولى ، في مبارزته ، واعلمه انه لا خلاف بينهما ولكن صديقك أحرجه ، فسحب مسدسه ، ولكنه لم يكن مثل شين سرعة ولا سداد هدف ..

وصحت عندئذ أقول : كان يجب عليك أن تراه يا أبي وهو يحارب في جبهتين ، فيردي ويلسون في الصالون برصاصتين ، ويقضي في الوقت نفسه على حياة فلتشر الذي اطلق عليه النار

من الشرفة .. غدراً وغيلة .. ثم اني لحقته بعد الحادثة وهو يركب جواده ..

وانتصب ابي واقفاً في مكانه يصيح بي:

– أتقول انك رأيته بعد الحادثة ..؟

– طبعاً رأيته وتحدثت اليه وهو يسلم عليكما ... ويعتذر عن سفره بهذه السرعة ..

وأمسك ابي عندئذ بذراع وير وراح يهزه وهو يقول :

– لماذا لم تخبرني انه سالم حي ..؟

فقال وير : ما اعلم اني قلت لك انه أصيب أو جرح ... طبعاً هو سالم حي .. لم يصبه اذى .. وما اظن شخصاً مثله يؤثر عليه الرصاص .. وقد غادر الوادي كما انبأنا ، وذهب في سبيله من حيث أتى ..

وعاد أبي إلى مقعده يفرك يديه وهو يقول :

– إذاً فالمستر شين صديقنا لم يتعرض لأذى ..

فقال وير وهو يهز رأسه :

– والأغرب من هذا أن احداً لم يفطن إلى وجود هذا الشيطان الكريم بيننا .. إلا ويلسون الذي كان يحاول ان لا يتعرض له ، ولا يختلف معه ..

وسقط ابي على مقعده خائراً حزيناً ، فقد ساءه بالتأكيد فراق هذا الصديق المخلص ، وهذا المنقذ الشريف ، ولذنا جميعاً بالصمت احتراماً لحزنه وتأثره ، وفجأة سمعنا وقع خطوات قريبة ، ثم رأينا رجلاً يدخل علينا ..

رفعنا جميعنا انظارنا اليه، فإذا به غريس أحد عمال فلتشر، وكان لايزال معصوب اليد، اصفر الوجه، وكان يحمل في يده زجاجة من الأشربة المبردة، ولقد لاحظت تردده منذ حدقت النظر في وجهه، ولكنه ما لبث أن تمالك نفسه وقال :

— لقد أتيت بهذه الزجاجة إلى بوب، وان كنت في الواقع لست بالرجل الذي سيحل مكان شين وارجو يا مستر ستارت، ان تسمح لي بأن اعرض خدماتي عليك عندما تشفى يدي ويصبح بامكاني العمل والقيام بواجباتي ..

وبدا التأثر واضحاً على وجـــه والدي، وأظن أن الكلام احتبس في حلقه فلم يستطع أن يقول شيئاً ... ولكن والدتي انقذت الموقف فهتفت تقول :

— ان هذا مما يسر المستر شين بالتأكيد ..

ولاذ ابي بالصمت فلم يقل شيئاً أيضاً، وأدرك المستر وير، وغريس أن الصدمة التي اصابته، كانت من الشدة بحيث يستحيل التهوين من أمرها عليه في هذه الساعة، ولهذا غادرا المكان معاً على أن يعودا في صباح اليوم التالي ..

وجلست انا وأمي نراقب ابي وننظر إليه، وهو في هـذه الحالة المؤثرة من الذهول والحزن، ثم شاهـدناه يغادر مكانه، ويعدو كالمجنون إلى الخارج، فتركناه وشأنه، اعتقـاداً منا أن الوحدة قد تساعد على تهوين الصدمة، وتخفف الحزن ..

ولست ادري كم من الوقت جلسنا أنا وأمي معاً في المطبخ، وفجأة رأيت أمي تمسك بذراعي، وهي تقول :

— هيا إلى ة إلى الراحة ..

فمضيت لا ا على سريري جلست أمي

ب مني، ثم

والآن يا بو ي ما رأيته وشاهدته ..

قصصت عليها القصة بتفاصيلها، فلمـــا انتهيت من قصتي م ، تقول :

— شكراً لك يا بوب ..

وظلت جالسة ساهمة بالقرب من سريري إلى أن غلبني النوم فنمت ..

•

أفقت في صباح اليوم التالي .. فتطلعت حولي فلم أشاهـد أمي حيث كانت على سريري، فتحسست مكانها فإذا به لا يزال حاراً ساخناً، فأدركت انها لم تغادره إلا منذ دقائق، وانهـا قضت الليل بقربي تفكر وتبكي ..

لبست ثيابي مسرعاً ودلفت إلى المطبخ، فوجدتهـــا فيه، ساهمة سالية، فلما رأتني وضعت يدها في يدي، ومضينا معـاً نفتش عن أبي لنهدىء من روعه، ونخفف من حزنه ..

فوجدناه حول السياج الذي أقامه شين بيديه، أثناء غياب والدي لشراء بعض المواشي، فلما شاهدها صاح يقول :

— ماريان .. لقد ضاق صدري من هـــذا المكان، ولست بمستطيع البقاء فيه بعد الذي حدث، فما رأيك لو بعناه واشترينا

مكاناً غيره في مونتانا مثلاً .. فقد بلغني ان الأرض فيها خصبة وان الجو معتدل جميل ..

فصاحت امي في وجهه وقد انتصبت أمامه :

ـ وكذلك قررت أن تترك شين، وترمي بجهوده عرض الحائط بينما هو هنا في كل مكان ..

فصاح أبي يقول : ولكنه ليس هنا ، لقد ذهب وغادرنا لتعاستنا وأحزاننا ..

فقالت : بل هو هنا .. اني لأشعر به في كل مكان مرّ به ووقف أمامه ، وتأمله وتحسسه ، وهو قد عرّض حياته للخطر ليحفظ لنا أرضنا ، فكيف تفكر والحالة هذه في مغادرتها وترك آثاره فيها ..؟

وأجفل والدي لهذا الجواب .. واخذ يتطلع في الأرض حوله ، ثم مد يده يتحسس السياج الذي اقامه شين في غيابه وما عتم ان هتف يقول :

ـ بالتأكيد انه هنا ..

فصاحت امي وقد أمسكت بيدي وطوقت ابي بذراعيها :

ـ نعم انه هنا .. وليس في العالم قوة تدعوني إلى ترك هذا المكان الذي كاد ان يضحي منقذنا بحياته لنحتفظ به ، ونعيش فيه ..

ـ انتهت ـ